صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام

إبراهيم محمد العلي





صور من
أدب السلوك
الاجتماعي
في الإسلام

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م

الطبعة الأولى



العبدلي مقابل عمارة جوهرة القدس

ص.ب :٩٢٧٥١١ : عمّان ١١١٩٠ الأردن

هاتف: ٥٦٩٣٩٤٠ ، فاكس : ٥٦٩٣٩٤١

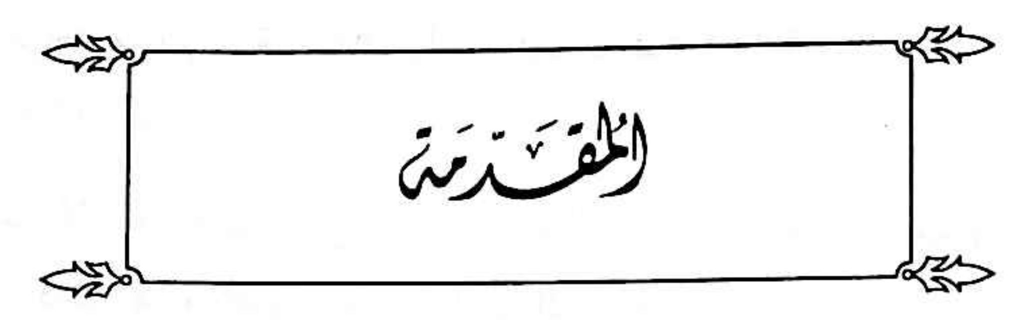
بريد الكتروني: ALNAFAES@HOTMAIL.COM

صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام

إبراهيم محمد العلي







المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن الله تعالى أنزل هذا الدين على محمد ﷺ، وأمره بالتخلق بأخلاق القرآن، وتهذيب أخلاق أصحابه وأمته لتنسجم مع أوامر الله ونواهيه، وتزكيتهم حتى يصبحوا خير أمة أخرجت للناس، حيث قال الله تعالى في نبيه وأمته وهو أصدق القائلين: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ [الجمعة: ٢].

أمر الله تعالى أمة الإسلام بالاقتداء بنبيه الكريم ﷺ في كل أموره، والتخلق بأخلاق النبوة الطاهرة، في سائر نواحي الحياة حيث قال سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢١].

الدين النصيحة:

ومن باب الحرص على أداء النصيحة على وجهها، والقيام بحق الله تعالى في النصح لعامة المسلمين، كما جاء:

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ).

[أخرجه مسلم برقم: ٥٥، وأبو داود برقم: ٤٩٤٤، والنسائي: ٧/ ١٦٧، وأحمد: ٤/ ١٠٢].

وحتى لا يقع الكثير من أبناء المسلمين فيما ينتقص من دينهم، أو يثلم مروءتهم، كانت هذه المجموعة من المواقف التربوية السلوكية، والتوجيهات الربانية، فيما يخدم هذا الهدف، وينفع في تهذيب سلوك أبناء المسلمين، ويضبط تصرفاتهم، فإن من لا يقوم بحق النصيحة وهو قادر عليها في دينه نقص وخلل كبير.

فقد جاء عن الإمام الذهبي -رحمه الله تعالى- وهو يعلق على هذا الحديث قائلاً: (فتأمل هذه الكلمة الجامعة، وهي قوله (الدِّينُ النَّصِيحَةُ)، فمن لم ينصح لله وللأئمة وللعامَّة، كان ناقص الدين، وأنت لو دعيتَ، يا ناقص الدين، لغضبت! فقل لي: متى نصحت لهؤلاء؟ كلا والله، بل ليتك تسكت، ولا تنطِق، أو لا تُحسِّن لإمامك الباطل، وتُجرئه على الظلم وتغشه، فمن أجلِ ذلك سقطت من عينه، ومن أعين المؤمنين، فبالله قل لي متى يُفلح مَنْ كان يسرُّه ما يضرُّه؟ ومتى يفلح من لم يراقب مولاه؟ ومتى يفلح من دنا رحيله، وانقرض جيلُه، وساءَ فعله وقيله ؟ فما شاء الله كان، وما نرجو صلاح أهل الزمان، ولكن لا ندع الدعاء، لعل الله أن يلطف، وأن يصلحنا، آمين).

[سير أعلام النبلاء: ١١/ ٥٠٠].

لا تستوحش لقلة السالكين:

ولأن هذا الطريق لا يسير فيه إلا القليل من أصحاب الهمة العالية، فلا يستوحش المسلم السائر فيه من قلة السالكين، فهو طريق صعب لكنه يسير على من يسره الله عليه، ولهذا جاء النداء من ابن القيم رحمه الله وهو يحدث عن كبير الهمة حيث قال: (لا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم الأقلون قدرا، وإن كانوا الأكثرين عددا، كما قال بعض السلف: و عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين.

وكلما استوحشت في تفردك، فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك) مدارج السالكين: ١/ ٢١.

نماذج يقتدى بها:

وسأورد في هذا الكتاب مجموعة من النماذج الرائعة، التي توضح مدى التزام سلفنا الصالح بأدب السلوك الاجتماعي الراقي، وتطبيق تعاليم الإسلام على حياتهم قولا وعملا، وسنلحظ من خلال هذه النماذج -المواقف- السلوكية، أنها ليست ضرباً من الخيال، لكنها واقع عاشه بشر لهم قدرات مثل قدرات أهل عصرنا، لهم عواطفهم ومشاعرهم وقلوبهم، لكنهم سلكوا طريق الهداية وبحثوا عنه، واجتهدوا وسعهم للتسديد والمقاربة، فأكرمهم الله تعالى وهداهم وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[العنكبوت: ٩٦] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ (محمد: ٧١] فهم أهل القدوة، وعلى طريقهم يسير أهل العقل والحكمة والباحثون عن الخير، يحدوهم الحادي بقوله:

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونصنع مثل ما صنعوا

والتشبه بأهل الخير منقبة لأهل الفضل الذين يحرصون على الوصول إلى مراتب أصحاب الهمة العالية، فإن لم يصلوا فإنهم لن يعدموا أن يقال فيهم تشبهوا بأهل الخير.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

وختاماً أسأل الله تعالى أن يجعل هذا الجهد في ميزان أعمالي يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأن يهدي الله قلوب المسلمين

إلى الخير، ويردهم إلى تعاليم الإسلام وأخلاق النبوة، إنه أكرم مسؤول، وأسرع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

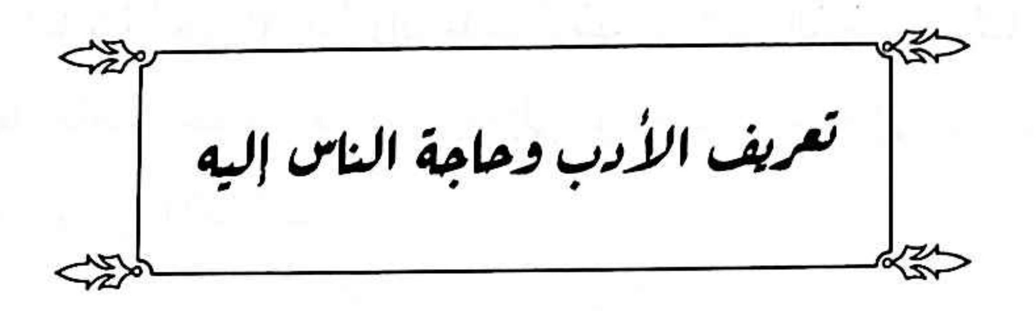
إبراهيم محمد العلي





الفصل الأول

دستور الأدب في التعامل



تعريف الأدب وحاجة الناس إليه

الأدب: هو اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه و تحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل، وهو شعبة من الأدب العام.

وحقيقة الأدب: استعمال الخلق الجميل.

مكانته وحاجة الناس إليه: وحين يأتي الحديث عن حاجة الناس إلى الأدب، ومكانته في حياة البشر فإننا نجد أهل العلم والحكمة يساهمون في الكشف عن هذه المكانة بكلام جميل مليء بالحكمة:

فقدَ قال عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: "إنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ مَكَارِمَ الأخْلاقِ وَمَحَاسِنَهَا وَصْلاً بَيْنَهُ وَبَيْنَكُمْ، فَحَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَتَّصِلَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِخُلُقٍ مِنْهَا".

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: "مَا نَحْنُ إلَى مَا نَتَقَوَّى بِهِ عَلَى حَوَاسِّنَا مِنْ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ بِأَحْوَجَ مِنَّا إلَى الأدَبِ الَّذِي هُوَ لِقَاحُ عُقُولِنَا، فَإِنَّ الْحَبَّةَ الْمَدْفُونَةَ فِي الثَّرَى لا تَقْدِرُ أَنْ تَطْلُعَ زَهْرَتُهَا وَنَضَارَتُهَا إلا بِالْمَاءِ الَّذِي يَعُودُ إلَيْهَا مِنْ مُسْتَوْدَعِهَا.

وحكَى الأصْمَعِيُّ - رحمه الله تعالى - أَنَّ أَعْرَابِيًا قَالَ لابْنِهِ: "يَا بُنَيَّ الْعَقْلُ بِلا أَدَبٍ كَالشَّجَرِ الْعَاقِرِ، وَمَعَ الأدَبِ دِعَامَةٌ أَيَّدَ اللَّهُ بِهَا الألْبَابَ، وَحِلْيَةٌ زَيَّنَ اللَّهُ بِهَا عَوَاطِلَ الأحْسَابِ، فَالْعَاقِلُ لا يَسْتَغْنِي وَإِنْ صَحَّتْ غَرِيزَتُهُ، عَنْ الأدَبِ الْمُخْرِجِ

زَهْرَتُهُ، كَمَا لا تَسْتَغْنِي الأَرْضُ وَإِنْ عَذُبَتْ تُرْبَتُهَا عَنْ الْمَاءِ الْمُخْرِجِ ثَمَرَتُهَا".

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: "الأَدَبُ وَسِيلَةٌ إِلَى كُلِّ فَضِيلَةٍ، وَذَرِيعَةٌ إِلَى كُلِّ شَرِيعَةٍ".

وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءُ فِيهِ:

فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِثْلَ الْعُقُولِ ... وَلا اكْتَسَبَ النَّاسُ مِثْلَ الأَدَبْ
وَ مَا كَرَمُ الْمَرْءِ إلا التُّقَى ... وَلا حَسَبُ الْمَرْءِ إلا النَّسَبْ
وَفِي الْعِلْمِ زَيْنٌ لأَهْلِ الْحِجَا ... وَآفَةُ ذِي الْحِلْمِ طَيْشُ الْغَضَبْ

"قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ إِذَا وُصِفَ لِي رَجُلٌ لَهُ عِلْمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لا أَتَأَسَّفُ عَلَى فَوْتِ لِقَائِهِ، وَإِذَا سَمِعْت رَجُلاً لَهُ أَدَبُ الْقَسِّ أَتَمَنَّى لِقَاءَهُ وَأَتَأَسَّفُ عَلَى فَوْتِهِ".

قَال ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: قَالَ الشَّاعِرُ:

خَيْرُ مَا وَرَّثَ الرِّجَالُ بَنِيهِمْ ... أَدَبٌ صَالِحٌ وَ حُسْنُ الثَّنَاءِ
هُوَ خَيْرٌ مِنْ الدَّنَانِيرِ وَالأَوْرَاقِ ... فِي يَوْمِ شِدَّةٍ أَوْ رَخَاءِ
تِلْكَ تَفْنَى وَ الدِّينُ وَ الأَدَبُ ... الصَّالِحُ لا يَفْنَيَانِ حَتَّى اللِّقَاء
إِنْ تَأَدَّبْت يَا بُنَيَّ صَغِيرًا ... كُنْت يَوْمًا تُعَدُّ فِي الْكُبَرَاءِ

وقال رويم بن أحمد البغدادي لابنه: "يا بني اجعل عملك ملحا، وأدبك دقيقا.

أي استكثر من الأدب حتى تكون نسبته في سلوكك من حيث الكثرة، كنسبة الدقيق إلى الملح الذي يوضع فيه عند عجنه لصنعه خبزا، وكثير من الأدب مع قليل من العمل الصالح، خير من كثير من العمل مع قلة الأدب" الفروق للقرافي (٣/٩٦).

ثمراته:

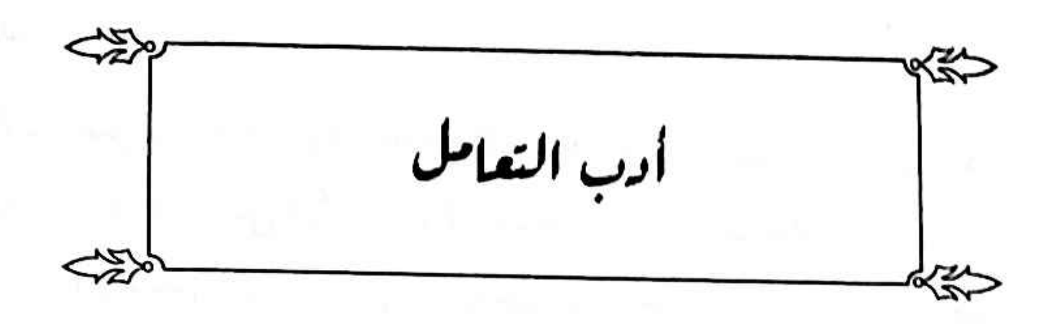
وأدب عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب، فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة، والإخلال به مع الأم تأويلا وإقبالا على الصلاة، كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته، وضرب الناس له، ورميه بالفاحشة.

ضرر الجهل به:

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهراً وباطناً، فما أساء أحد الأدب في الظاهر، إلا عوقب ظاهراً، وما أساء أحد الأدب باطناً، إلا عوقب باطناً.

وقال عبد الله بن المبارك - رحمه الله -: من تهاون بالأدب، عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض، عوقب بحرمان المعرفة، وقيل: الأدب في العمل؛ علامة قبول العمل.





أدب التعامل

ولما كان أدب السلوك الاجتماعي الراقي من الأمور التي حرص الإسلام على ترسيخها في نفوس أبنائه، جاءت الآيات القرآنية الكثيرة، والأحاديث النبوية الصحيحة، والتطبيق العملي لأجيال الخير من السابقين، مبينة وموضحة لهذا السلوك.

ومن أكثر المواطن وضوحاً في بيان هذا الأدب، سورة الحجرات، والتي تستحق أن نسميها سورة الأدب القرآني الجم، وغيرها من آيات القرآن وسوره.

وقد حرص النبي ﷺ على ترسيخ هذا الأدب في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، من خلال القول والتطبيق والسلوك العملي، والتزم الصحابة والسلف رضوان الله عليهم جميعاً بهذا السلوك، فطبقوا ما جاء في الآيات القرآنية، والتزموا الأخلاق النبوية، فأثمر ذلك دستوراً راقياً في التعامل، محدد المعالم، واضح القسمات والتعاليم، ولذلك تتابعت كلمات أهل الحكمة في تحديد معالمه، وذلك من خلال ما تعلموه من سنة النبي ﷺ، وما عاشوه من سلوكياته التي كان أفضل وصف لها ما نطقت به السيدة الجليلة: عَائِشَةُ أم المؤمنين رضي الله عنها وقد سئلت عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقَالَتْ لسائلها: (أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ) أخرجه مسلم برقم: ٧٤٦ بلفظ طويل.

وحين نبدأ طريق التأصيل في وضع دستور الأدب في التعامل فإننا سنبدأ الرحلة من الجيل القرآني الفريد الذين عايشوا التنزيل، ورأوا التطبيق العملي لأخلاقيات النبوة، ثم نتبع ذلك بأجيال الخير والأفضلية، ثم نترك زمام التأصيل

يرخي عنانه ليقبس من فقهاء التربية والحكمة بعضا من تلك القواعد الجامعة لأصول الأدب الراقي، وأنماط الذوق الرفيع، فلنبدأ الرحلة في مراحلها المختلفة:

العبادلة يبدؤون مشوار التاصيل:

فقد جاء عن الشعبي رحمه الله قوله: لما حضر عبد الله بن مسعود ﷺ الموت دعا ابنه فقال:

(يا عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، إني أوصيك بخمس خصال فاحفظهن عني:

أظهر اليأس للناس، فإن ذلك غنى فاضل.

ودع مطلب الحاجات إلى الناس فإن ذلك فقر حاضر.

ودع ما تعتذر منه من الأمور، ولا تعمل به.

وإن استطعت أن لا يأتي يوم إلا وأنت فيه خيرا منك بالأمس فافعل.

وإذا صليت فصل صلاة مودع كأنك لا تصلي بعدها.

[وصايا العلماء عند الموت: ص ٦٩-٧٠ برقم: ٣٥]

وجا ء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

أربعة لا أقدر على مكافأتهم:

رجل بدأني بالسلام.

ورجل وسع لي في المجلس.

ورجل اغبرت قدماه في المشي في حاجتي.

فأما الرابع فما يكافئه عني إلا الله عز وجل.

قيل: ومن هو ؟

قال: رجل نزل به أمر فبات ليلته يفكر فيمن يقصده، ثم رآني أهلا لحاجته فأنزلها بي). وفيات الأعيان: ٣/ ٦٢.

الأحنف بن قيس يحدد معالم جديدة:

أما سيد قومه - الأحنف بن قيس رحمه الله- وأحد من وصفوا بالحلم وسعة الصدر في عصرهم، فإنه يبين معالم دستور تعامله مع الناس، والتي أهلته ليكون سيد قومه بلا منازع، فقد جاء عن الأحنف بن قيس رحمه الله قال:

(ما عاداني أحد قط إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال:

إن كان أعلى مني، عرفت له قدره.

وإن كان دوني، رفعت قدري عنه.

وإن كان نظيري، تفضلت عليه). أدب الدنيا والدين للماوردي: ص٢٣١.

بكر بن عبد الله يزيد الأمر وضوحا:

وها هو التابعي الجليل بكر بن عبد الله المزني - رحمه الله - يحدد معالم دستور الأدب عنده حيث يقول:

(إذا رأيت أكبر منك، فقل: سبقني بالإسلام والعمل الصالح فهو خير مني.

وإذا رأيت أصغر منك: فقل: سبقته بالذنوب والمعاصي، فهو خير مني. وإذا رأيت إخوانك يكرمونك، فقل: نعمة أحدثوها.

وإذا رأيت منهم تقصيراً، فقل: بذنبٍ أحدثته). (حلية الأولياء ٢/ ٢٢٦، وصفة الصفوة: ٣/ ٢٤٨، عيون الأخبار لابن قتيبة: ١/ ٢٦٧).

الشافعي يؤصل لخصال الخير:

وحين يأتي الحديث عن الأمور التي تزيد في عقل الإنسان، وترفع من سوية

الأدب عنده فإننا نجد فقيه السنة الأكبر، يبين هذه المعالم في عبارات قليلة جامعة فقد جاء عن الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - أنه قال:

(أربعة تزيد في العقل: ترك الفضول من الكلام، والسواك، ومجالسة الصالحين، ومجالسة العلماء) زاد المعاد: ٣/ ٤١٧.

الجيلاني يستكمل قواعد الأدب:

أما شيخ التربية والتزكية وأحد كبار العلماء في عصره فقد كان كلماته موجهة إلى أبناء هذه الأمة على شكل قواعد ينصح بتجريبها لأنها موصلة إلى المراتب الشريفة الفاضلة فقد جاء عن الشيخ عبد القادر الجيلاني - رحمه الله تعالى- أنه قال:

(لأهل المجاهدة والمحاسبة وأولي العزم عشر خصال جربوها، فإذا أقاموها وأحكموها بإذن الله تعالى، وصلوا إلى المنازل الشريفة:

الأولى: أن لا يحلف بالله عز وجل صادقاً ولا كاذباً.

الثانية: أن يجتنب الكذب لا هازلاً ولا جاداً.

الثالثة: أن يحذر أن يعد أحداً شيئاً فيخلفه.

الرابعة: أن يجتنب أن يلعن شيئا من الخلق، أو يؤذي ذرة فما فوقها.

الخامسة: أن يجتنب الدعاء على أحد من الخلق وإن ظلمه.

السادسة: أن لا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق، فإنه أقرب للرحمة وأعلى في الدرجة وأبعد عن الدخول في علم الله تعالى.

السابعة: أن يجتنب النظر إلى المعاصي ويكف عنها جوارحه.

الثامنة: يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق من مؤونة صغيرة ولا كبيرة، فإن ذلك تمام عزة العابدين وشرف المتقين وبه يقوى على الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر.

التاسعة: ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين، ولا يطمع نفسه فيما في أيديهم، فإنه العز، واليقين الصافي، والتوكل الشافي الصريح، وهو باب من أبواب الثقة بالله عز وجل، وهو باب من أبواب الزهد وبه ينال الورع ويكمل نسكه.

العاشرة: التواضع لأن به يستكمل العز والرفعة عند الله سبحانه وعند الخلق، وهذه الخصلة أصل الخصال كلها، وبها يدرك العبد منازل الصالحين وهي كمال التقوى، والتواضع هو أن لا يلقى العبد أحدا من الناس إلا ويقول عنه: عسى أن يكون عند الله خيرا مني). فتوح الغيب: المقالة: ٧٨.

السري السقطي يكشف عن اعظم انواع الأدب:

وحين نبحث عن أعظم ما يقرب العبد من ربه فإننا نجد لأحد الزهاد عبارة يجب أن تكتب بماء الذهب، فهو يخبر أن الناس قد يتساوون بالأعمال، لكن الأمر الفاصل الذي يميز بينهم هو حسن الأدب مع الله فقد جاء:

عن الجنيد - رحمه الله تعالى - أنه قال: سمعت سريا السقطي - رحمه الله تعالى - يقول:

(الناس في الأعمال يتقاربون، وإنما قارب من قارب، بحسن الأدب بين يدي الله تعالى). مختصر نشوار المحاضرة للقاضي أبي علي التنوخي: ١/ ٢٨٥.

وللحكام نصيب في التاصيل:

وهاهم الساسة والحكام يسهمون في التأصيل لدستور الأدب في التعامل من خلال مشاركة حية ومؤثرة لأحد دهاقنة السياسة والحكم زياد بن أبيه - رحمه الله تعالى- والي العراق حيث وضع لنفسه دستورا في التعامل مع الناس فقد جاء عن المدائني - رحمه الله - أنه قال: لما ولي زياد بن أبيه صعد المنبر بعد صلاة الظهر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إني رأيت خلالا ثلاثا نبذت إليكم فيها

بالنصيحة:

رأيت إعظام ذي الشرف، وإجلال ذي العلم، وتوقير ذوي الأسنان، وإني أعاهد الله لا يأتيني شريف بوضيع لم يعرف له شرفه على ضعته إلا عاقبته، ولا يأتيني عالم بجاهل لاحاه في علمه ليهتجنه عليه إلا عاقبته، فإنما الناس بأعلامهم وذوي أسنانهم، ثم تمثل:

تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولت فبالأشرار تنقاد
لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

لباب الآداب: ص٤٠.

للمراة نصيب وافر في تاصيل قواعد الأدب:

أما المرأة فإنها تشكل نصف المجتمع، وتسهم في إنجاح مهمة التأديب أكثر من غيرها، بل إن العبء الأكبر من تطبيق مواد دستور الأدب في التعامل يقع على كاهلها، فهي المدرسة التي تتخرج منها الأجيال فهي الأم، والزوجة، والأخت، والبنت، فهي والله كما قال الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

ونجدها على وعي كبير وهي تسهم في وضع دستور أدب التعامل، وأخلاقيات الذوق الرفيع، وخير ما يوضح هذا نموذج رائع أسوقه لإحدى النساء تضع لابنها المسافر أخلاقيات التعامل مع الآخرين ليكسب من خلالها المكانة العالية، والذكر الحسن بين الناس:

فقد جاء عن أبان بن تغلب - رحمه الله تعالى-، وكان عابدا من عباد أهل البصرة أنه قال: شهدت أعرابية وهي توصي ولدا لها يريد سفرا، وهي تقول له:

(أي بني، اجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقك، فإن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك.

قال أبان: فوقفت مستمعا لكلامها، مستحسنا لوصيتها، فإذا هي تقول:

أي بني، إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين.

وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا[1]، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقلما اعتورت السهام غرضا إلا كلمته حتى يهي ما اشتد من قوته.

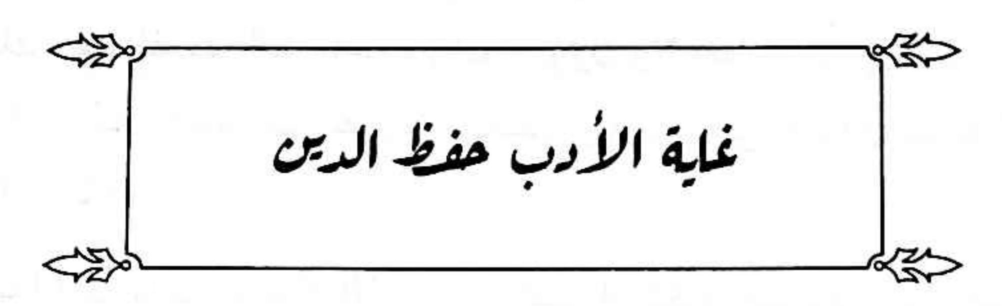
وإياك والجود بدينك، والبخل بمالك، وإذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها.

ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه، ومن كانت مودته بشره، وخالف ذلك منه فعله، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها.

والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم، ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها). جواهر الأدب للهاشمي: ص١٨٤.



(١) الغرض: الهدف الذي يرجى بالسهام.



وحين نبحث عن المقصد الأساسي للتأصيل لأخلاقيات الذوق الرفيع ، فإننا سنجد الغاية والهدف الأساس هو حفظ دين الإنسان المسلم، وتقريبه من خالقه سبحانه، دون أي تفريط بحق من حقوقه سبحانه، ودون أي تفريط بحكم من أحكام الدين في سبيل كسب محبة الناس، فالقاعدة الذهبية هي المتمثلة بهذه العبارة – دينكَ دينكَ فإنه هو لحمك ودمك –وهي إحدى العبارات الجميلة التي تضمنتها وصية للإمام الحسن البصري –رحمه الله– وهو يوصي بها المسلم أن يحافظ على دينه، ويحرص عليه حرصه على دمه ولحمه، يلتزم أوامره، ويجتنب نواهيه، ويدافع عنه.

فقد أورد الإمام أبو نعيم الأصبهاني في كتابه حلية الأولياء في ترجمة الإمام الرباني الزاهد سيد التابعين الحسن البصري –رحمه الله تعالى– ما نصه:

(... ثنا يزيد بن هارون قال: قال أبو عبيدة: قال الحسن– رحمه الله تعالى –:

رحم الله امرأً عرف ثم صبر، ثم أبصر فبصِر، فإن أقواماً عرفوا فانتزعَ الجزع أبصارهم، فلا هُم أدركوا ما طلبوا، ولا هم رجعوا إلى ما تركوا.

اتقوا هذه الأهواء المضلة البعيدة من الله التي جماعها الضلالة وميعادها النار لهم محنة، من أصابها أضلته، ومن أصابته قتلته.

يا ابن آدم: دينكَ دينكَ فإنه هو لحمك ودمك، إن يسلم لك دينك يسلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فنعوذ بالله، فإنها نار لا تطفأ، وجرحٌ لا يبرأ، وعذابٌ لا ينفذ أبداً، ونفس لا تموت.

يا ابن آدم: إنك موقوفٌ بين يدي ربك ومرتهن بعملك، فخذهما في يديك لما بين يديك، عند الموت يأتيك الخبر، إنك مسؤول ولا تجد جواباً، إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همه). حلية الأولياء: ٢/ ١٤٥-١٤٦.

ولهذا فإن آداب السلوك الاجتماعي يجب أن تكون منضبطة مع أوامر الدين ونواهيه، متقيدة بما أمر الله تعالى به، منتهية عما نهى الله تعالى عنه في الكتاب العظيم، والسنة المطهرة الصحيحة، وما أجمل تلك العبارات التي قالها الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- والتي حدد فيها أصول السعادة في الحياة ودستور الأعمال حيث يقول:

(إن للفعل المشروع الناجح ثلاثة شروط:

العبد إذا عزم على فعل أمر فعليه أن يعلم أوَّلاً هل هو طاعة لله أم لا؟ فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مباحاً يستعين به على الطاعة، وحينئذٍ يصير طاعة.

- فإذا بان له أنه طاعة فلا يُقدِمُ عليه حتى ينـظُرَ هل هو مُعانٌ عليه أم لا؟ فإن لم يكن مُعاناً عليه فلا يُقدمُ عليه، فيذِلَ نفسه، وإن كان مُعاناً عليه بقي عليه نظرٌ آخر.

- وهو أن يأتيه من بابه، فإن أتاه من غير بابه أضاعه، أو فرَّط فيه، أو أفسد منه شيئاً.

فهذه الأمور الثلاثة - الطاعة، والإعانة، والهداية- أصل سعادة العبد وفلاحه، وهو معنى قولة العبد لربه: (إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم).

فأسعد الخلق أهلُ العبادة، والاستعانة، والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم من عُدم الأمور الثلاثة). أعلام الموقعين عن رب العالمين: ٢/ ١٦٠-١٦١.

تمام العمل بخمس خصال:

ولئن حدد الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - للفعل الناجح المشروع ثلاث خصال، فقد جعل أبو عبد الله الناجي الزاهد رحمه الله تمام العمل بخمس خصال حيث قال:

(خمس خصال بها تمام العمل:

الايمان بمعرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال.

فإذا فقدت واحدة، لم يرفع العمل.

وذلك، إذا عرفت الله عز وجل، ولم تعرف الحق، لم تنتفع.

وإذا عرفت الحق، ولم تعرف الله، لم تنتفع.

وإذا عرفت الله، وعرفت الحق، ولم تخلص العمل، لم تنتفع.

وإذا عرفت الله، وعرفت الحق، وأخلصت العمل، ولم يكن على السنة، لم تنتفع.

وإن تمت الأربع، ولم يكن الأكل من حلال، لم تنتفع). جامع العلوم والحكم: ١/ ٢١٥

ولهذا حرص السلف الصالح -رضوان الله عليهم- على الابتعاد عما يمس دينهم أو يؤثر فيه، وإليكم هذه القصة التي أوردها الإمام الخطيب البغدادي -رحمه الله- في كتابه (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)، حيث قال:

(عن حفص بن غياث - رحمه الله تعالى - قال:

بعث العباس بن موسى أمير الكوفة إلى الأعمش - رحمه الله تعالى - بألف درهم وصحيفة، فقال: اكتب لي فيها من حديثك.

فأخذ الألف درهم، وكتب له فاتحة الكتاب، فبعث بها إليه، فبعث إليه:

أبلغك أنّا لا نُحسِنُ القرآن؟

فبعث إليه -يعني الأعمش-: أبلغك أنّا نبيع العلم). الجامع للأخلاق الراوي وآداب السامع: ١/ ٣٥٦برقم: ٨٢٩.

فانظروا رحمكم الله إلى صيانة العلم والدين التي فعلها الأعمش رحمه الله تعالى، حيث أبى أن يأتي باب الأمير ليعلمه العلم لأن العلم يؤتى ولا يأتي.

وشبيها بهذا ما جاء عن أمير المؤمنين في الحديث الإمام الرباني محمد بن إسماعيل البخاري - رحمه الله تعالى - كما جاء:

عن بكر بن منير بن خليد بن عسكر قال: بعث الأمير خالد ابن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل - يعني البخاري -: أن احمل إلي كتاب الجامع والتاريخ وغيرهما لأسمع منك.

فقال محمد بن إسماعيل لرسوله:

أنا لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كانت لك إلى شيء فيه حاجة، فاحضرني في مسجدي، أو في داري، وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان فامنعني من المجلس، ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة، لأني لا أكتم العلم لقول النبي ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه، ألجم بلجام من نار».

فكان سبب الوحشة بينهما هذا .

سير أعلام النبلاء: ١٢/ ٤٦٤، تهذيب الكمال: ٢٤/ ٤٦٤، تاريخ بغداد: ٢/ ٣٣، طبقات الشافعية للسبكي: ٢/ ٢٣٢-٢٣٣، مقدمة فتح الباري: ص٤٩٤.

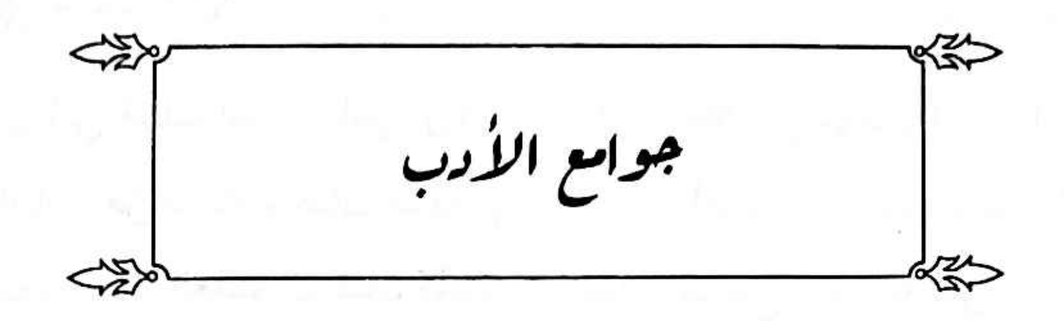
وما أجمل ما نظم القاضي الفقيه الشاعر علي بن عبد العزيز الجرجاني - رحمه

الله تعالى - حين قال:

يقولون لـي فيـك انقبــاض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الـذل أحجما
أرى الناس من داناهم هـان عنـدهم ... ومـن أكـرمته عـزة النفس أكرما
ولم أقـض حـق العلـم إن كـان كلما ... بـدا طـمع صـيرته لـي سلـما
إذا قيـل هـذا مطمـع قلـت قـد أرى ... ولكـن نفس الحـر تحتمـل الظما
ولم أبتـذل في خدمـة العلـم مهجـتي ... لأخـدم مـن لاقيت لكـن لأخـدما
أأشـقى بـه غرسـا وأجـنيه ذلـة ... إذا فاتبـاع الجهـل قـد كـان أكرما
ولـو أن أهـل العلـم صـانوه صـانهم ... ولو عظمـوه في النفـوس لعـظما
لكـن أهانـوه، فهـان، ودنسـوا ... محيـاه بالأطمـاع حتـى تجهـما

البداية والنهاية: ١١/ ٣٥٤.





إن الباحث في تراثنا العريق، والقارئ المنصف لتراجم الأعلام والنبلاء من أبناء هذه الأمة، سيجد كما هائلا من العبارات والوصايا التي تصلح لكي تكون موادا لدستور أدب التعامل، وأصولا للأدب، وجوامع للأخلاق الفاضلة، وسأورد في هذا الموضع مجموعة منها على سبيل التمثيل فقط، ومن يريد المزيد فإن كتب التراجم وسير الأعلام تعتبر منجما مليئا بجوامع الأدب والأخلاق.

ما آدب هذا الفتى واحسن مروءته:

فقد أورد الإمام ابن سعد -رحمه الله تعالى - في كتابه (الطبقات الكبرى) حادثة تدل على أصول الأدب وجوامع الأخلاق الفاضلة، حيث جاء في ترجمة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بن الحكم -رحمهما الله تعالى- ما نصه:

(كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما جالساً يوماً ومعه عمرو بن العاص رضي الله عنه، فمر بهما عبد الملك بن مروان، فقال معاوية: ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته!

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع، وترك خصالاً ثلاثاً:

أخذ بحسنِ الحديث إذا حَدث، وحسن الاستماع إذا حُدِّث، وحسن البشر إذا لقي، وخفة المؤونة إذا خولف.

وترك من القول ما يعتذر منه، وترك مخالطة اللئام من الناس، وترك ممازحة

من لا يوثق بعقله ولا مروءته). الطبقات الكبرى: ٥/ ٢٢٤.

الخليفة يعتبر الأدب خيراً من النسب العريق:

ولأن عبد الملك بن مروان - رحمه الله تعالى - قد اجتمعت فيه هذه الخصال فقد اعتبر الأدب خيراً من النسب العريق، وهو يوصي مؤدب أولاده حيث قال - رحمه الله تعالى- فيما ذكره عنه صاحب كتاب (لباب الآداب) الأمير أسامة بن منقذ -رحمه الله تعالى- ما نصه:

(قال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده -وكان رجلاً من بني زهرة:

علمهم الصدقَ كما تعلمهم القرآن، واحملهم على الأخلاق الجميلة، ورَوِّهم الشعرَ يشجُعُوا وينجدُوا.

وجالسْ بهم أشرافَ الناس وأهلَ العلم منهم، فإنهم أحسنُ الناس رعةً[1] وأحسنهم أدباً.

وجنبهم السفلة والخدمَ، فإنهم أسوأ الناس رعةً وأسوؤهم أدباً.

ومُرهُمْ فليستاكوا عرضاً، وليمصوا الماءَ مصاً ولا يعبُّوه عَبَّاً.

ووقرهم في العلانية، وذللهم في السر.

واضربهم على الكذب، فإن الكذبَ يدعو إلى الفجور، والفجور يدعو إلى النار.

وجنبهم شتم أعراض الرجال، فإنَّ الحرَّ لا يجد من عرضهِ عوضاً.

وإذا وُلُوا أمراً فامنعهم من ضرب الأبشار[2] فإنه عارٌ باقٍ، وَوَترٌ مطلوب.

---

(١) رعة: رعاية لحقوق الناس.

(٢) الأبشار: جمع بشر: وهو الجلد.

واحملهم على صلة الأرحام، واعلم أن الأدب أولى بالغلام من النسب).
لباب الآداب: ص٢٣٠.

لماذا جوامع الأدب وصور السلوك الراقي:

وحين نتساءل عن السبب الذي يحملنا على أن نجهد أنفسنا في البحث عن صور السلوك الراقي، وأدب الذوق الرفيع، وجوامع خصال الخير، فإننا نجد إمام التابعين الحسن البصري- رحمه الله تعالى - يضعنا أمام الجواب فيقول فيما جاء عنه: (إن المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا.

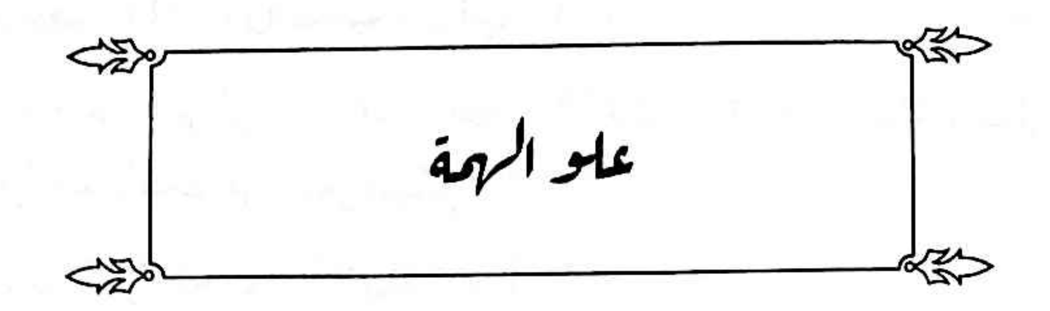
وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة.

إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك.

ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا ؟ ما لي ولهذا، والله مالي عذر بها، ووالله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله.

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم.

إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله عز وجل، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله). مصنف ابن أبي شيبة: ١٣/ ٥٠٣-٥٠٤ رقم: ١٧٠٨٥، وحلية الأولياء لأبي نعيم: ٢/ ١٥٧، وصفة الصفوة: ٣/ ٢٣٤-٢٣٥.



علو الهمة

وحين نبحث عن أمر يعيننا على تجاوز الصعاب والمشاق في سبيل التخلق بهذه الآداب، فإن من أعظم هذه الأسباب علو الهمة

والهمة في مدلولها ومعناها تعني توجه القلب وقصده، وأصحاب الهمم العالية من راموا بكليتهم سبيل الحق، فعكفت قلوبهم على الله، وجمعوا همتهم عليه، وفرغوا القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

عُلُوُّ الهِمَّةِ باعث على فضيلة:

وعلو الهمة باعث على التقدم، وتجعل صاحبها يأنف من كل خسيس من الأمور، يرى الأمور على حقيقتها، فكل ما كان لله يعلق قلبه به، فلا ينظر للأدنى، بل يرتبط قلبه بسبب إلى السماء، فهو لا يرضى بالدونية، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا".

أخرجه الطبراني في الكبير برقم: ٢٨٩٤، وابن عدي في الكامل: ١/ ١١٤، والقضاعي برقم: ١٠٧٦، ١٠٧٧، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: ١٣٧٨، وصحيح الجامع: برقم ١٨٩٠ من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما

وجاء من حديث جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: (إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها).

أخرجه الطبراني في الأوسط برقم: ٦٩٠٦، وصححه الألباني في صحيح

الجامع برقم: ١٧٤٣، والصحيحة برقم: ١٦٢٦.

وَجاء عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - أَنَّهُ قَالَ: لا تُصَغِّرَنَّ هِمَّتَكُمْ فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَقْعَدَ عَنْ الْمَكْرُمَاتِ مِنْ صِغَرِ الْهِمَمِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: "الْهِمَّةُ رَايَةُ الْجِدِّ".

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: "عُلُوُّ الْهِمَمِ بَذْرُ النِّعَمِ".

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: "إِذَا طَلَبَ رَجُلانِ أَمْرًا ظَفِرَ بِهِ أَعْظَمُهُمَا مُرُوءَةً".

وَقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ: "مَنْ تَرَكَ الْتِمَاسَ الْمَعَالِي بِسُوءِ الرَّجَاءِ لَمْ يَنَلْ جَسِيمًا" أدب الدنيا والدين للماوردي.

علو الهمة مقدمة الفضائل:

ولا بد لكل سائر إلى الله، وطالب للتحلي بالأخلاق الفاضلة من همة تسيره وترقيه، ومن علم يبصره ويهديه، فالهمة هي أساس للأمور كلها، فمن صلحت همته صلحت سائر أعماله.

قال أحد الصالحين: همتك فاحفظها فإن الهمة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته وصدق فيها صلح له ما وراء ذلك من الأعمال. بصائر تربوية: ص١٣٧

علو الهمة تسرع في اجتياز المراحل:

ولنعلم أنه ليس بكثرة العمل والعبادة فقط يكون العبد من أوائل من يطرقون باب الجنة، فرب درهم سبق مائة ألف درهم، ولكن العبرة بأمور أربعة: صحة العقيدة، وتجرد القصد، وصحة النية، وعلو الهمة.

وفي ذلك يقول الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى -: فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة، وعلو الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية، مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك، مع التعب الكثير، والسفر الشاق، فإن العزيمة

والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير ؛ والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم، وصدق الرغبة، والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكون صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله. إحياء علوم الدين: ١/ ١٣١، الفوائد لابن القيم: ص١٤٠ .

شتان بين همة عالية واخرى هابطة:

ومن كان مؤهلا لوراثة الأنبياء، والارتقاء لمراتب الأصفياء والأولياء، وهي مرتبة عظيمة، خطير شأنها، عظيم حالها، فلا بد له أن يتعالى عن سفاسف الأمور، ويأخذ الأهبة، ويتحلى بإرادة لا يفلها الحديد، فلا يصلح لصاحب هذه المنزلة أن يحوم حول حطام الدنيا الزائف، ويجول قلبه في خيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة والخيالات الباطلة تتلاعب به كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، فهذه بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية، ليست لها همة تنال بها الحقائق.

فأصحاب الهمم السفلية تراهم يتكالبون على الحظوظ الفانية، من الجاه والسلطان، وحب الرياسة، والطواف في البلدان لجمع الأموال والأثمان، أو الظفر بامرأة، ويظل مشغول القلب بأمانيه الزائفة، وتراه حائما في الأرض حيران يتمثل صورة مطلوبه في نفسه، وقد التذ بالظفر بها، فبينما هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

أما أصحاب الهمم العالية فيخبرك ابن القيم - رحمه الله تعالى - عنهم وعن حالهم ومقاصدهم بقوله:

(وصاحب الهمة العالية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان والعمل الذي يقربه إلى الله، ويدنيه من جواره، فأماني هذا إيمان ونور وحكمة، وأماني أولئك خداع وغرور) مدارج السالكين: ١/ ٤٥٧-٤٥٨ .

عالي الهمة لا يقف دون الله:

ولنعلم أن عالي الهمة لا يتوقف عند حد معين، فهو يرى أن لا حد له يقف عنده دون مرضاة الله وفي هذا يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -:

(علو الهمة: أن لا تقف دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء بسواه، ولا ترضى بغيره بدلا منه، ولا تبيع حظها من الله، وقربه والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به، بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية، فالهمة العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولاتصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن الهمة كلما علت، بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان، فإن الآفات قواطع وجواذب، وهي لا تعلو إلى المكان العالي فتجتذب منه، وإنما تجتذب من المكان السافل، فعلو همة المرء: عنوان فلاحه، وسقوط همته: عنوان حرمانه). مدارج السالكين: ٣/ ١٧١-١٧٢.

وقال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى-: (خروج النفس إلى غاية كمالها في العلم والعمل). صيد الخاطر: ١٨٩ .

وقال الشيخ محمد الخضر حسين - رحمه الله تعالى -: (استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور). رسائل الإصلاح: ٢/ ٨٦ .

ولذلك فإن عالي الهمة لا يرضى بالدون من الأمور ولا ترضيه إلا معاليها وفي ذلك تشبيه جميل لعالي الهمة بالصقر الذي يطير في السماء حيث يقول الشاعر:

قلت للصقر وهو في الجو عال ... اهبط الأرض فالهواء جديب
قال لي الصقر في جناحي وعزمي ... وعنان السماء مرعى خصيب

علو همة أبي بكر التي لا تسابق:

وحين تبحث عن صاحب همة عالية لا يستطيع أحد اللحاق به، فلن تجد بعد

نبي الله ﷺ أعظم همة من صديق هذه الأمة الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ﷺ، وسأورد فيما يلي أحداثا تبرز تلك الهمة العالية التي لا تجارى: فقد جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(مَنْ أَنفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ فِي الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ.

فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ.

وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ.

وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ.

وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ.

قَالَ أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه -: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا ؟.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ). أخرجه البخاري برقم: ١٨٩٧، ومسلم برقم: ١٠٢٧ واللفظ لمسلم.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(مَنْ أَصْبَحَ مِنكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟.

قَالَ أَبو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا.

قَالَ: فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟.

قَالَ أَبو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا.

قَالَ: فَمَنْ أَطْعَمَ مِنكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا ؟.

قَالَ أَبو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا.

قَالَ: فَمَنْ عَادَ مِنكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا ؟.

قَالَ أَبو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ما اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إلا دَخَلَ الْجَنَّةَ). أخرجه مسلم برقم: ١٠٢٨، والبخاري في الأدب المفرد برقم: ٥١٥

وحين يحاول صاحب الهمة العالية الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ﷺأن يسابق أبا بكر ﷺفي أدبيات الذوق الرفيع، وسلوكيات التعامل فإنه يعجز عن ذلك ويكف عن المحاولة، ويرضى بما هو عليه رغم أنه أعجز من جاء بعده أن يفعلوا مثل ما فعل رضي الله عنه، فقد جاء:

عَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ:

(أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي، فَقُلْتُ:

الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ ﷺإِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا

قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟

قُلْتُ: مِثْلَهُ.

قَالَ: وَأَتَى أَبو بَكْرٍ ﷺ بكُلِّ ما عِنْدَهُ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ.

قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

قُلْتُ: لا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا). أخرجه أبو داود برقم: ١٦٧٨، والترمذي برقم: ٣٦٧٦ وقال حسن صحيح وهو كما قال.

أين مثل هذا في زماننا:

وحين سألنا أهل العلم، وأئمة الدين عن أقصى أمانيهم، أجاب لسان حالهم

على لسان بعضهم حيث أخبرنا العلامة أبي القاسم الزمخشري - رحمه الله تعالى - عن ذلك بقوله شعرا ما نصه:

سهري لتنقيح العلوم ألذُ لي — من وصل غانيةٍ وطيب عناقِ
وتمايلي طرباً لحل عويصةٍ — أشهى وأحلى من مُدامةِ ساقِ
وصريرُ أقلامي على أوراقِها — أحلى من الدُّوكاه والعُشَّاقِ
وألذُ من نقرِ الفتاة لدُفِّها — نقري لأُلقي الرملَ عن أوراقي
يا مَنْ يحاولُ بالأماني رتبتي — كم بين مُسْتَفِلٍ وآخرَ راقي
أأبيتُ سهرانَ الدُّجى وتَبيتهُ — نوماً وتبغي بعد ذاكَ لحاقي

مقدمة تفسير الكشاف .

اماني تدل على همة عالية:

وجاء أيضا في ترجمة الإمام العلامة الفقيه الذي لا يجارى ابن حزم الظاهري - رحمه الله تعالى - ما يشير إلى علو همته، حيث نظم ذلك شعرا فقال:

مُنايَ من الدنيا علومٌ أَبُثُّها — وأنشُرها في كل بادٍ وحاضر
دعاءٌ إلى القرآن والسننِ التي تناسى — رجالٌ ذكرها في المحاضر
وألزمُ أطرافَ الثغورِ مجاهداً إذا — هيعةٌ ثارتْ فأولُ نافر
لألقى حِمامِي مُقْبلاً غير مدبرٍ — بسُمر العوالي والرقاقِ البواتر
كفاحاً مع الكفار في حومةِ الوغى — وأكرمُ موتٍ للفتى قتلُ كافر
وألزمُ أطرافَ الثغورِ مجاهداً إذا — ولا تجعلني من قطينِ المقابر

سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٢٠٦ .

ومن نوادر ما يقرأ في علو الهمة في طلب العلم ما جاء عن الإمام العظيم الحافظ أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد الأندلسي - رحمه الله تعالى - المتوفى سنة ٢٧٦هـ، فقد جاء عن ابنه أنه قال: (رحل أبي من مكة إلى بغداد، وكان رجلا بغيته ملاقاة أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى -.

قال: فلما قربت بلغتني المحنة، وأنه ممنوع، فاغتممت غما شديدا، فاحتللت بغداد، واكتريت بيتا في فندق، ثم أتيت الجامع، وأنا أريد أن أجلس إلى الناس، فدفعت إلى حلقة نبيلة، فإذا برجل يتكلم في الرجال، فقيل لي: هذا يحيى بن معين - رحمه الله تعالى -، ففرجت لي فرجة، فقمت إليه، فقلت: يا أبا زكريا - رحمك الله - رجل غريب، ناء عن وطنه، يحب السؤال، فلا تستجفني.

فقال: قل. فسألت عن بعض من لقيته، فبعضا زكى، وبعضا جرح، فسألته عن هشام بن عمار، فقال لي: أبو الوليد صاحب صلاة دمشقي ثقة، وفوق الثقة، لو كان تحت ردائه كبر أو متقلدا كبرا ما ضره شيئا لخيره وفضله.

فصاح أصحاب الحلقة: يكفيك - رحمك الله - غيرك له سؤال.

فقلت وأنا واقف على قدم: اكشف عن رجل واحد أحمد بن حنبل.

فنظر إلي كالمتعجب، فقال لي: ومثلنا نحن نكشف عن أحمد، ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم.

فخرجت أستدل على منزل أحمد بن حنبل، فدللت عليه، فقرعت بابه فخرج إلي فقلت: يا أبا عبد الله، رجل غريب، نائي الدار، هذا أول دخولي هذا البلد، وأنا طالب حديث، ومقيد سنة، ولم تكن رحلتي إلا إليك.

فقال: ادخل الأصطوان - يعني به: الممر إلى داخل الدار - ولا يقع عليك عين. فدخلت فقال لي: وأين موضعك ؟! قلت: المغرب الأقصى، فقال لي:

إفريقية ؟ قلت: أبعد من إفريقية، أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية، بلدي الأندلس.

قال: إن موضعك لبعيد، وما كان شيء أحب إلي من أن أحسن عون مثلك على مطلبه، غير أني في حيني هذا ممتحن بما لعله قد بلغك.

فقلت: بلى، قد بلغني وأنا قريب من بلدك مقبل نحوك.

فقلت: يا أبا عبد الله، هذا أول دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فان أذنت لي أن آتي كل يوم في زي السؤال، فأقول عند الباب ما يقولونه، فتخرج إلى هذا الموضع، فلو لم تحدثني كل يوم إلا بحديث واحد لكان لي فيه كفاية.

فقال لي: نعم، على شرط أن لا تظهر في الخلق، ولا عند المحدثين.

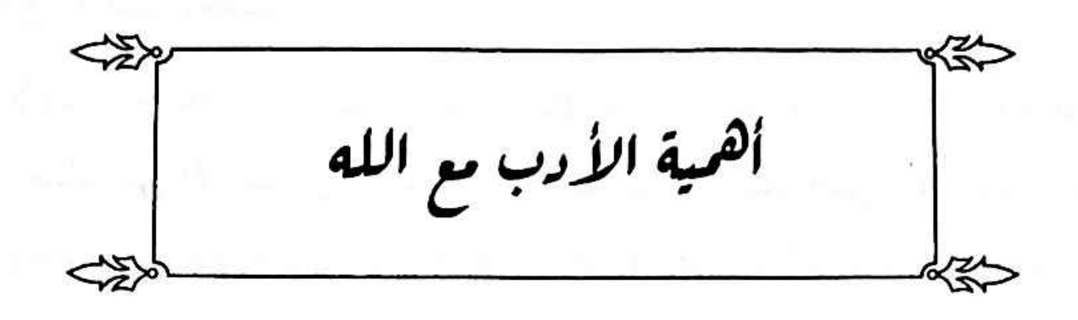
فقلت: لك شرطك.

فكنت آخذ عصا بيدي، وألف رأسي بخرفه مدنسة، وأجعل كاغدي - أي ورقي - ودواتي في كمي، ثم آتي بابه، فأصيح: الأجر رحمك الله - والسؤال هناك كذلك - فيخرج إلي ويغلق باب الدار، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر، فالتزمت ذلك حتى مات الممتحن له، وولي بعده من كان على مذهب السنة، فظهر أحمد، وعلت إمامته، وكانت تضرب إليه آباط الإبل، فكان يعرف لي حق صبري، فكنت إذا أتيت حلقته فسح لي، ويقص على أصحاب الحديث قصتي معه، فكان يناولني الحديث مناولة، ويقرؤه علي، وأقرؤه عليه.) سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٢٩٢-٢٩٤.



الفَصْلُ الثَّانِي

صور من أدب السلوك مع اللّه



أهمية الأدب مع الله

الأدب مع الله تعالى:

هو حسن الصحبة معه بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة، على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء كحال مجالس الملوك ومصاحبتهم.

وفي ذلك قال يحيى بن معاذ -رحمه الله تعالى -: "من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله".

وقال ابن المبارك - رحمه الله تعالى -: "نحن إلى قليل من الأدب، أحوج منا إلى كثير من العلم".

وسئل الحسن البصري - رحمه الله تعالى - عن أنفع الأدب؟ فقال: "التفقه في الدين والزهد في الدنيا والمعرفة بما لله عليك.

وقال سهل بن عبد الله التستري - رحمه الله تعالى -: "من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص".

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهرا وباطنا، ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره، ونفس مستعدة قابلة لينة متهيئة لقبول الحق، علما وعملا وحالا.

الأدب مع الله الدين كله:

والأدب مع الله: "هو الدين كله، فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب، حتى يقف بين يدي الله طاهرا، ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه".

من صور الأدب مع الله تعالى:

ومن الأدب مع الله تعالى: "أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة، كما ثبت عن النبي في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم - رضي الله عنهم -، والصحيح أن هذا الأدب يعم الفضاء والبنيان.

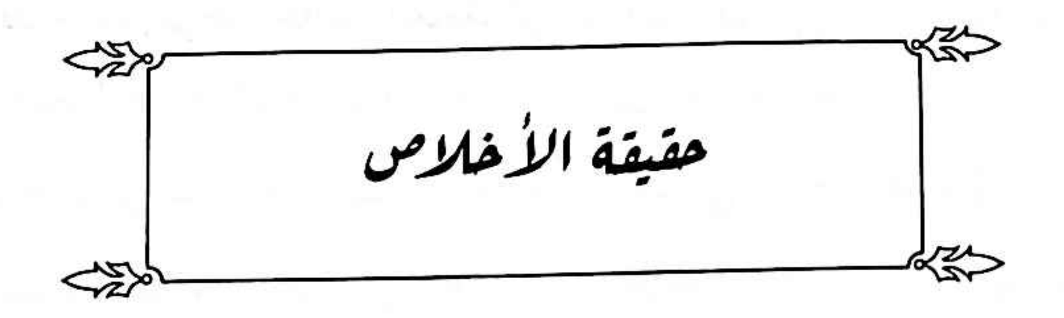
ومن الأدب مع الله تعالى: في الوقوف بين يديه في الصلاة، وضع اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة، ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد ﷺأنه من السنة، وكان الناس يؤمرون به ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء فعظيم العظماء أحق به.

ومنها: السكون في الصلاة وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[المعارج: ٢٣]، وفسر الدوام بسكون الأطراف والطمأنينة وأدبه في استماع القراءة أن يلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: "أن يستوي ويعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه ويتضاءل ويتصاغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء".

وسأورد في هذا الفصل صورا من أدب السلوك مع الله تعالى، وهي نماذج تطبيقية واقعية عاشها السلف الصالح رحمهم الله تعالى.





حقيقة الأخلاص

إن الإخلاص هو أصل دين الإسلام، وأعظم أعماله القلبية، فالمخلص هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له من قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عز وجل، ولا يحب أن يطلعَ الناسُ على مثاقيل الذر من عمله، فالقلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألذ، ولا أطيب، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج، وهرب منه الشيطان لأنه ليس له عليه سلطان، قال الله تعالى: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢-٨٣].

ولا يسمى المخلصُ مُخلصاً حتَّى يفرد الله -عز وجل- بالعمل والعبادة، ولهذا جاء الحديث عن النبي ﷺ ليربط بين سائر أعمال الإنسان المسلم وبين إخلاص توجهه إلى الله سبحانه وتعالى حين قال: (إِنَّمَا الأعمَالُ بالنِّياتِ، وإِنَّما لِكُلِّ امرئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانَتْ هِجرَتُهُ إلى دُنْيا يُصيبُهَا أو إلى امرأةٍ ينكحها، فهجرَتُهُ إلى مَا هاجَرَ إليهِ). أخرجه البخاري برقم: ١، ٥٤، ٢٥٢٩، ٢٨٩٨، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣، ومسلم برقم: ١٩٠٧.

لا تطلب الفضائل بالنية الفاسدة:

ولأن الإخلاص بهذه الأهمية ولكونه أساس الأعمال جميعاً، ومبناها جميعاً عليه، فإن الفضائل لا تطلب إلا بنية صادقة مخلصة، وليحذر أن يطلبها المسلم بنية فاسدة.

وقد جاء في ترجمة الحافظ، الحجة، الإمام، الصادق، أبي بكر هشام بن أبي عبدالله سنبر البصري الربعي رحمه الله ما يشير إلى ذلك ما نصه:

أن عون بن عمارة قال: سمعت هشاماً الدستوائي - رحمه الله تعالى - يقول:

والله ما أستطيع أن أقول أني ذهبت يوما قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل.

قلت - أي الذهبي رحمه الله -:

(والله ولا أنا، فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله وحصلوه ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق.

كما قال مجاهد - رحمه الله تعالى - وغيره: طلبنا هذا العلم، وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد.

وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله.

فهذا أيضاً حسن، ثم نشروه بنية صالحة.

وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا، وليثنى عليهم فلهم ما نووا.

قال ﷺ: (من غزا ينوي عقالاً فله ما نوى). أخرجه أحمد في المسند: ٥/ ٣١٥ والحاكم: ٢/ ١٠٩ وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: ٦٤٠١.

وترى هذا الضرب لم يستضيئوا بنور العلم، ولا لهم وقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم، وولوا به المناصب فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتباً لهم، فما هؤلاء بعلماء !!.

وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحيل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذ

من الأخبار.

وبعضهم اجترأ على الله، ووضع الأحاديث، فهتكه الله، وذهب علمه، وصار زاده إلى النار.

وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئاً كبيراً، وتضلعوا منه في الجملة، فخلف من بعدهم خلف بان نقصهم في العلم والعمل، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير، أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله، لأنهم ما رأوا شيخاً يقتدى به في العلم، فصاروا همجاً رعاعاً، غاية المدرس منهم أن يحصل كتباً مثمنة يخزنها، وينظر فيها يوما ما، فيصحف ما يورده، ولا يقرره، فنسأل الله النجاة والعفو، كما قال بعضهم: ما أنا عالم، ولا رأيت عالماً). سير أعلام النبلاء: ٧/ ١٥٢-١٥٣.

كلام أغلى من الذهب:

عن عبد الرحمن بن مهدي - رحمه الله -، عن طالوت - رحمه الله-، سمعت إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - يقول: ما صدق الله عبد أحب الشهرة.

قلت: (أي الذهبي رحمه الله): (علامة المخلص الذي قد يحب الشهرة، ولا يشعر بها، أنه إذا عوتب في ذلك لا يحرد، ولا يبرئ نفسه، بل يعترف ويقول: رحم الله من أهدى إلي عيوبي، ولا يكن معجباً بنفسه، لا يشعر بعيوبها، بل لا يشعر أنه لا يشعر، فإن هذا داء مزمن). سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٩٣ .

وما أغلاه من كلام، وصدق من قال: (الذهبي ذهبي الكلام)، حقاً إنه كلام أغلى من الذهب، فالمخلص إذا اتهم لم يكابر، ولم يشمخ بأنفه، ولم تأخذه العزة بالإثم فيقول: أنا ...أنا ... أنا، وإنما يخضع ويذعن، ويخاف ويخشى.

والنماذج في هذا الباب كثيرة والتي برز في أصحابها حقيقة إخلاصهم في أعمالهم، وإليك أخي القارئ هذين النموذجين:

اما والله لولا اللهُ ما أتيتكم به:

١- أورد الإمام الطبري -رحمه الله تعالى- في كتاب «تاريخ الأمم والملوك» ما نصه:

(لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض- الغنائم-، أقبلَ رجلٌ بحُقٍّ[1] معه، فدفعه إلى صاحبِ الأقباض.

فقال الذين معه: ما رأينا مثلَ هذا قط! ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه.

فقالوا: هل أخذتَ منه شيئاً؟

فقال: أما واللهِ لولا اللهُ ما أتيتكم به.

فعرفوا أنَّ للرجلِ شأناً.

فقالوا: من أنتَ؟

فقال: لا واللهِ لا أُخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليُقرّظوني، ولكني أحمدُ الله وأرضى بثوابه.

فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه عنه؟ فإذا هو عامرُ بن عَبْد قيس[2]- رحمه الله تعالى -). تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ١٧٦ حوادث سنة١٦ للهجرة.

اللهم اجعلني مع صاحب النقب:

٢- وذكر ابن قتيبة - رحمه الله تعالى- في عيون الأخبار ما نصه:

(لما حاصر مَسْلَمةُ بن عبد الملك - رحمه الله تعالى - حِصناً، وكانَ في ذلك

---

(١) الحق: الوعاء الكبير المملوء بالجواهر والتحف.

(٢) عامر بن عبدقيس الحضرمي أحد عباد التابعين وزهادهم، وهو أول من عُرف بالزهد في البصرة.

الحصن نقب[1]، فندب الناس إلى دخوله، فما دخله أحداً، فجاء رجلٌ من عُرض الجيش[2] فدخله ففتح الله عليهم الحصن، فنادى مَسلَمةُ: أينَ صاحِبُ النقب؟

فما جاءَهُ أحد، فنادى: إني قد أمرتُ الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعَزَمْتُ عليه إلا جاء.

فجاءَ رجل إلى الآذن فقال: استأذِنْ لي على الأمير.

فقال له: أنت صاحبُ النقب؟

قال: أنا أُخبركم عنه.

فأتى الآذنُ إلى مَسْلَمة فأخبره عنه، فأذن له.

فقال الرجل لِمَسْلَمة:

إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً:

ألا تُسودوا[3] اسمَهُ في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو؟

قال مَسْلَمةُ: فذاكَ له.

قال الرجل: أنا هُوَ.

فكان مَسْلَمةُ بعد هذه الحادثة لا يُصلّي صلاةً إلا قال:

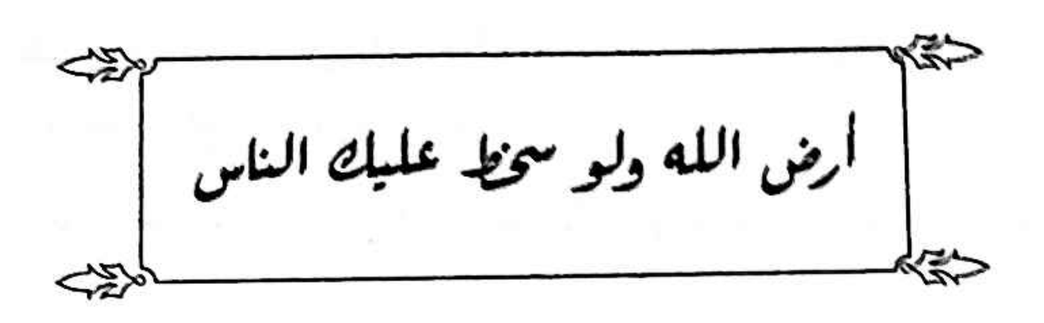
اللهم اجعلني مع صاحب النقب). عيون الأخبار: ١/ ١٧٢.

---

(١) النقب: ثقب في الحائط.

(٢) عرض الجيش: عامته.

(٣) تسودوا. تكتبوا.



صنف النبي ﷺ الناس إلى صنفين، فمنهم الساعي إلى مرضاة الله ولو سخط الناس عليه، ومنهم الذين يطلبون رضا الناس، ولو ألجاه ذلك إلى ارتكاب المعاصي والمحرمات التي تغضب الله عليه.

وقد حدد النبي ﷺ نتيجة كل من الفريقين، فالصنف الأول يكسب مرضاة الله عز وجل، ويعطيه الله رضا الناس عنه حتى لو سخطوا في أول أمرهم عليه، أما الصنف الثاني فإنه ينال سخط الله، ثم يسخط الله عز وجل الناس الذين حرص على إرضائهم في سخط الله عز وجل.

وقد جاء في ذلك عن النبي ﷺ عدة أحاديث نوردها فيما يلي: فقد جاء عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ).

وفي لفظ ابن حبان: قالت: قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس).

أخرجه الترمذي برقم: ٢٤١٤، وابن المبارك في الزهد والرقائق: ص٦٦، وابن حبان برقم: ٢٧٦.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (من أسخط الله في رضا الناس سخط الله عليه، وأسخط عليه من أرضاه في سخطه، ومن أرضى الله في سخط الناس، رضي الله عنه، وأرضى عنه من أسخطه في رضاه حتى يزينه

ويزين قوله وعمله في عينه).

أخرجه الطبراني في الكبير برقم: (١١٦٩٩) وقال الهيثمي في المجمع: ١٠/ ٢٢٤ ، ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن سليمان الجفري، وقد وثقه الذهبي. قلت: والحديث حسن .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (من طلب محامد الناس بمعاصي الله عاد حامده له ذاماً).

وفي لفظ البزار وابن حبان: (من أرضى الله بسخط الناس كفاه الناس، ومن أسخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس).

وفي لفظ البيهقي: (من أراد سخط الله، ورضا الناس عاد حامده من الناس ذاماً).

أخرجه البزار كما في الكشف برقم: ٣٥٦٨، وابن حبان برقم: ٢٧٧، والبيهقي في الزهد الكبير برقم: ٨٨٧، ٨٩٠، والحديث حسن.

وسأورد فيما يلي نماذج وقصص رائعة توضح هذا الأمر، وهذه النماذج تستهوي أصحاب العقول ليقفوا أمامها متدبرين:

لا تسقط من عين الله:

١- قال أبو عثمان الحداد:

بلغني أن بهلولاً - يعني البهلول بن راشد القيرواني رحمه الله - كان ذات يوم جالساً وعنده صاحبه رباح بن يزيد الزاهد، إذ أقبل أخ للبهلول في البادية يلهج بخبر المطر والزرع، والبهلول يتقلى ويتلون اغتماماً لرباح، لعلمه بكراهيته ذكر الدنيا وأسبابها.

فلما أكثر أخوه من هذا نهض وجعل يقول لبهلول:

سقطت من عيني، تذكر الدنيا في مجلسك ولا تغير.

فقال له البهلول:

إذا لم أسقط من عين الله فلا أبالي من عين من سقطت.

فخر رباح على رأسه يقبله: نعم يا حبيبي يا بهلول لا تبالي من عين من سقطت، إذا المرء سقط من عين الله). [ترتيب المدارك: ١/ ٣٣٣]

عصى الله واطاعني فسلطني الله عليه:

٢- جاء في ترجمة الوزير الكبير الفضل بن مروان ما نصه:

(قال ابن النجار: هو الفضل بن مروان بن ماسرجس، وكان بديع الخط، منشئا، لم يزل في ارتقاء، والناس يحسدونه حتى نكب، وأدى أربعين ألف درهم، فكان المعتصم يقول: عصى الله وأطاعني، فسلطني الله عليه.

قلت: ثم أطلقه، وألزمه بيته، واستوزر أحمد بن عمار، وقيل: ألقيت رقعة إليه فيها:

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر فقبلك كان الفضل والفضل والفضل

ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم أبادتهم الأقياد والذل والقتل

وفيات الأعيان: ٤/ ٤٦ .

إن تك مع الله في طاعته كفاك يزيد:

٣-جاء في ترجمة الإمام الرباني القدوة سيد التابعين الحسن بن ابي الحسن البصري - رحمه الله تعالى - ما نصه:

(عن علقمة بن مرثد قال: لما ولي عمر بن هبيرة العراق، أرسل إلى الحسن وإلى

الشعبي فأمر لهما ببيت، وكانا فيه شهراً أو نحوه.

ثم إن الخصي غدا عليهما ذات يوم فقال: إن الأمير داخل عليكما.

فجاء عمر يتوكأ على عصا له، فسلم ثم جلس معظماً لهما.

فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليَّ كتبا أعرف أن في إنفاذها الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله، فهل تريا لي في متابعتي إياه فرجاً ؟.

فقال الحسن: يا أبا عمرو أجب الأمير.

فتكلم الشعبي، فانحط في حبل ابن هبيرة.

قال: ما تقول أنت يا أبا سعيد ؟.

فقال: أيها الأمير قد قال الشعبي ما قد سمعت.

قال: ما تقول أنت ؟.

قال: أقول: يا عمر بن هبيرة ! يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله، فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك.

يا عمر بن هبيرة ! إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولن يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله.

يا عمر بن هبيرة ! لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد ابن عبد الملك نظرة مقت فيغلق بها باب المغفرة دونك.

يا عمر بن هبيرة ! لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا والله عن الدنيا وهي مقبلة، أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة.

يا عمر بن هبيرة ! إني أخوفك مقاماً خوفك الله تعالى، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[إبراهيم: ١٤].

يا عمر بن هبيرة ! إن تك مع الله في طاعته، كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله، وكلك الله إليه.

قال: فبكى عمر بن هبيرة، وقام بعبرته.

فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما فأكثر منها للحسن، وكان في جائزة الشعبي بعض الإقتار.

فخرج الشعبي إلى المسجد فقال: يا أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله على خلقه فليفعل، فوالذي نفسي بيده، ما علم منه الحسن شيئاً فجهلته، ولكن أردت وجه ابن هبيرة فأقصاني الله منه). تهذيب الكمال: ٦/ ١١٣-١١٤، وحلية الأولياء: ٢/ ١٤٩-١٥٠.

إرضاء الناس غاية لا تدرك:

عن أبي جعفر الهروي - رحمه الله تعالى - قال:

كنت مع حاتم - رحمه الله تعالى - كر وقد أراد الحج.

فلما وصل إلى بغداد قال لي: يا أبا جعفر أحب أن ألقى أحمد بن حنبل.

فسألنا عن منزله ومضينا إليه، فطرقت عليه الباب، فلما خرج قلت:

يا أبا عبد الله أخوك حاتم.

قال: فسلم عليه ورحب به، وقال له بعد بشاشته به:

أخبرني يا حاتم، فيم التخلص من الناس ؟.

قال: يا أحمد في ثلاث خصال.

قال: وما هي ؟.

قال: أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً.

قال: وتقضي حقوقهم ولا تستقضي أحداً منهم حقاً لك.

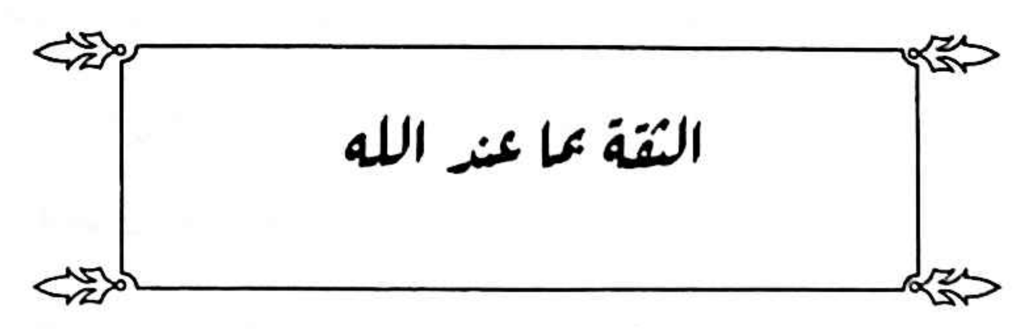
قال: وتحتمل مكروههم، ولا تكره أحداً على شيء.

قال: فأطرق أحمد ينكت بإصبعه على الأرض.

ثم رفع رأسه، ثم قال: يا حاتم إنها لشديدة !.

فقال له حاتم: وليتك تسلم، وليتك تسلم، وليتك تسلم، [تاريخ بغداد: ٨/ ٢٤٢].





الثقة بما عند الله

إن ثقة العبد المسلم بما عند الله تعالى يجب أن ترقى إلى المستوى الذي يكون فيه أكثر ثقة مما في يديه، فقد أقسم الله تعالى على قضية الرزق بذاته العلية حين قال: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

وحين دعا إبراهيم عليه السلام أن يرزق الله تعالى ذريته من المؤمنين من الثمرات، أخبره رب العزة أنه يرزق من كفر أيضاً، فيمتعهم بما يرزقهم ثم يضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير، حيث قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وإليك أخي المسلم هذه الحادثة العجيبة في هذا الباب تخبرك عن عظمة الله في قلوب السابقين، وعن ثقتهم بما عند الله تعالى:

(قال القاضي أبو علي المُحَسِّنُ بن أبي القاسم علي التنوخي:

خرج رجلان من المدينة، يريدان عبد الله بن عامر بن كُرِيز، للوفادة عليه، أحدهما من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري، والآخر من ثقيف، وكان عبد الله عاملاً بالعراق لعثمان بن عفان ﷺ.

فأقبلا يسيران، حتى إذا كانا بناحية البصرة، قال الأنصاري للثقفي: هل لك في رأي رأيته؟

قال: اعرضه:

قال: ننيخ رواحلنا[1] ونتوضأ، ونصلي ركعتين، نحمد الله -عز وجل- فيهما، على ما قضى في سفرنا.

قال له: نعم، هذا الرأي الذي لا يرد.

قال: ففعلا.

ثم التفت الأنصاري إلى الثقفي، فقال له:

يا أخا ثقيف، ما رأيك؟

قال: وأيُّ موضع رأيٍ هذا؟! قضيتُ سفري، وأنضيتُ بدني، وأتعبتُ راحلتي، ولا مؤمَّل دون ابنِ عامرٍ، فهل لك من رأيٍ غير هذا؟

قال: نعم، إني لما صليتُ، فكَّرتُ، فاستحييتُ من ربي، أن يراني طالبَ رزقٍ من عند غيره.

ثم قال: اللهمَّ رازق ابن عامرٍ ارزقني من فضلك.

ثم ولى راجعاً إلى المدينة، ودخل الثقفي إلى البصرة، فمكثَ على باب ابن عامر أياماً، فلما أذِنَ له دخلَ عليه، وكانَ قد كُتِبَ إليه من المدينة بخبرهما.

فلما رآه رحبَ به، وقالَ:

ألم أخبر أن ابن جابر خرج معك؟

فأخبره ما كان منهما، فبكى ابن عامر، وقال:

والله ما قالها أشراً ولا بَطراً، ولكن رأى مجرى الرزق، ومخرج النعمة، فعلم أن الله -عز وجل- هو الذي فعلَ ذلك، فسأله من فضله.

---

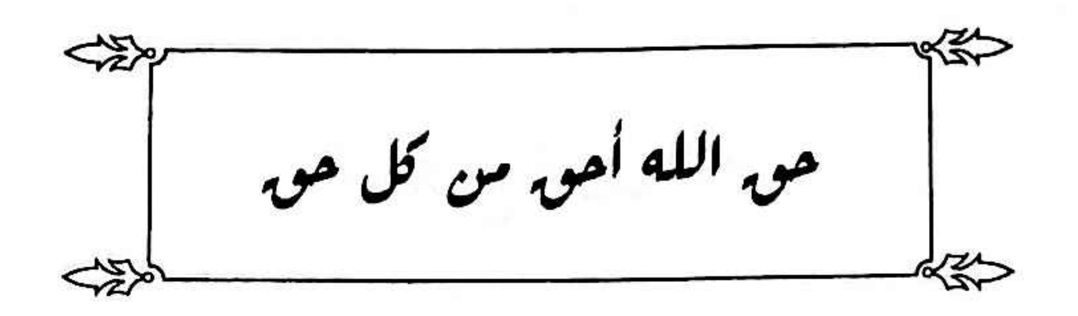
(١) رواحلنا: الجمال والإبل.

ثم أمر للثقفي بأربعة آلاف، وكُسوةٍ، وطرفٍ، وأضعف ذلك للأنصاري، فخرج الثقفي وهو يقول:

أُمامةُ ما سعيُ الحريصِ بزائدٍ فتيلاً، ولا عجزُ الضعيفِ بضائرِ
خرجنا جميعاً من مساقطِ روسِنا على ثقة مِنّا بجودِ ابن عامرِ
فلما أنخنا الناعجاتِ ببابهِ تأخر عني اليثربيُّ ابنُ جابرِ
وقال: ستكفيني عطية قادر على ما يشاءُ اليومَ للخلق قاهرِ
فإنَّ الذي أعطى العراق ابن عامرٍ لربِّي الذي أرجو لسدِّ مفاقري
فلما رآني قال: أينَ ابنُ جابرٍ؟ وحنَّ كما حنَّتْ عِرابُ الأباعرِ
فأضعف عبدالله -إذ غاب-حظه على حظِّ لهفان من الحرص فاغرِ

لباب الآداب لأسامة بن منقذ: ص١٤٣-١٤٤.





حق الله أحق من كل حق

جاء في ترجمة الإمام الفقيه إسحاق بن إبراهيم بن ميسرة أبو إبراهيم التجيبي - رحمه الله تعالى - ما نصه:

(قال تلميذه وقريبه قاسم بن أرفع رأسه- رحمه الله تعالى-: تركني أبي، وإخوتي في حجر أبي إبراهيم، فكلمنا وربانا وعلمنا، ففتح الله عليَّ ببركته، فلم يكن في قلبي أحد أعظم منه لي.

كنت يوماً خارجاً إلى صلاة العصر، إذ فتح بابه فإذا به ورائي، يريد مثل ما أريد ه، فتوقفت حتى لحقني، فسلمت عليه، فرد عليَّ مغضباً وقال لي:

يا قاسم! قط ما كان هذا تقديري فيك ! فيا ليتني ثكلتك، ولم أرك صنعت ما صنعت !.

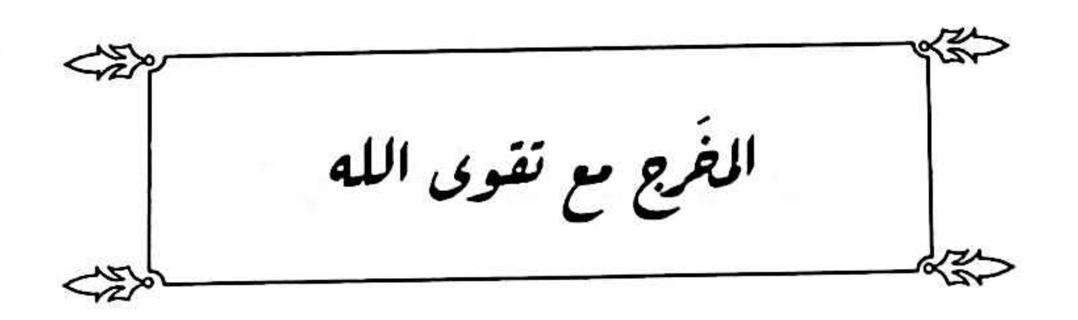
فقلت: وما هو يا سيدي ؟.

قال: خرجت من بيتك إلى الله لتأدية فريضة، فبينا أنت في ذلك، وقعت عينك على مخلوق مثلك، يريد ما أردته، فحولت وجهك إليه عن قلتك، ووقفت حتى لحقك ؟

فقلت: يا سيدي، أنا معذور في الهوى إليك، إذ حقك علي كوالدي.

فقال: ما أريد أن تفعله به ولا بي، فحق الله أحق من كل حق، لا تعد لمثله).
ترتيب المدارك: ٤/ ٤٢٧ .





المخرج مع تقوى الله

إن العبد المسلم الذي يحسن صلته بالله تعالى، ويقوم بين يديه تعالى مقام العبد المستجير فإنه سرعان ما يجد الله تعالى رؤوفاً رحيماً، يستجيب لدعوته، ويفرج كربته ويدفع عنه شر من يريد به سوءاً، وما أكثر أولئك الذين فرج الله عنهم، وأجاب دعاءهم، وكشف كروبهم، ومن بين تلك النماذج سأختار هذه النماذج في هذا الباب:

التقوى العمل بطاعة الله، على نور من الله:

١ - (عن عاصم الأحول، عن بكر المزني - رحمه الله تعالى - قال:

لما كانت فتنة ابن الأشعث، قال طلق بن حبيب: اتقوها بالتقوى، فقيل له: صف لنا التقوى ؟

فقال: العمل بطاعة الله، على نور من الله، رجاء ثواب الله، وترك معاصي الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله.

قال الذهبي - رحمه الله تعالى-: قلت: أبدع وأوجز، فلا تقوى إلا بعمل، ولا عمل إلا بترو من العلم والاتباع، ولا ينفع ذلك إلا بالإخلاص لله، لا ليقال: فلان تارك للمعاصي بنور الفقه، إذ المعاصي يفتقر اجتنابها إلى معرفتها، ويكون الترك خوفاً من الله، لا ليمدح بتركها، فمن داوم على هذه الوصية فقد فاز) [سير أعلام النبلاء: ٤/ ٦٠١، وحلية الأولياء: ٣/ ٦٤].

من اتقى الله جعل له مخرجاً:

٢- عن الشعبي - رحمه الله تعالى -: أن زياداً (يعني ابن أبيه) كتب إلى الحكم

ابن عمرو الغفاري ﷺ - وكان على الصائفة.

(إن أمير المؤمنين معاوية، كتب إلي يأمرني أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة، واقسم ما سوى ذلك.

فكتب إليه الحكم: إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، والله لو أن السماوات والأرض كانتا رتقا على عبد، فاتقى الله، لجعل له منهما مخرجاً.

ثم نادى في الناس، وقسم فيهم ما اجتمع له من الفيء). [العقد الفريد لابن عبد ربه: ١/ ٥٨].

أمَن يجيب المضطر إذا دعاه:

٣- نقل الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره عند قوله تعالى في سورة النمل: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[النمل: ٢٦] عن الحافظ ابن عساكر الدمشقي قال:

(كان رجل مُكارياً على بغل له -أي يركب الناس على بغل له للسفر بالأجرة- يُكارِي به من دمشق إلى الزَّبداني، فركب معه ذات يوم رجل، قال: فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة.

فقال لي الرجل: خذ في هذه الطريق فإنها أقرب، فقلت له: لا خِبْرة لي بها.

فقال: بل هي أقرب.

فسلكناها، فانتهينا إلى مكانٍ وعْرٍ ووادٍ عميق فيه قتلى كثيرون.

فقال لي الرجل: أمسِكْ رأس البغل حتى أنزل.

فنزل وتشمّر وجمَعَ عليه ثيابَه، وسلَّ سِكّيناً معه، وقصدني من بين يديه - فهربتُ- وتبعني! فناشدتُه الله وقلتُ له:

خُذ البغل بما عليه، فقال: هُوَ لي، وإنما أُريدُ قتلك، فخوَّفتُه بالله تعالى

والعقوبةِ منه، فلم يَقبل!

فاستسلمتُ بين يديه، وقلت له: إن رأيت أن تتركني حتى أُصلي ركعتين.

فقال: لك ذلك وعجِّلْ.

فقمتُ أُصلي، فأُرتج علي -أي ذهب عني كلُّ ما أحفظه من القرآن- فلم يحضُرني منه حرف واحد، فبقيتُ واقفاً متحيراً، وهو يقول لي:

هيّا افرُغْ، فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[النمل: ٦٢].

فإذا أنا بفارسٍ قد أقبل من فم الوادي، وبيده حرْبة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده، فخرَّ صريعاً.

فتعلّقتُ بالفارس، وقلتُ له: بالله من أنت؟

فقال: أنا عَبْدُ من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء.

قال: فأخذتُ البغلَ والحِمْلَ ورجعتُ سالماً). تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٧١.

هذا ممًا ادركت من بركة الشافعي:

٤- قال الفضل بن الرَّبيع حاجب هارون الرَّشيد أمير المؤمنين - رحمه الله تعالى -، قال:

(دخلتُ على هارون الرَّشيد، فإذا بين يديه ضُبارة[١] سيوف، وأنواع من العذاب.

فقال لي: يا فضلُ.

(١) الضبارة: الحزمة.

فقلتُ: لبَّيك، يا أمير المؤمنين.

قال: عليَّ بهذا الحجازيِّ -يعني الشافعيَّ- رحمه الله تعالى -.

فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب هذا الرجل.

قال: فأتيت الشافعيَّ، فقلت له: أجب أميرَ المؤمنين.

فقال: أُصلّي ركعتين.

فقلت: صلِّ.

فصلَّى، ثمَّ ركب بغلةً كانت له، فسرنا معاً إلى دار الرَّشيد، فلمَّا دخلنا الدِّهْليز الأوَّل حرَّك الشافعيُّ شفتيه، فلمَّا دخلنا الدِّهْليزَ الثاني حرَّك شفتيه فلمَّا وصلنا بحضرة الرَّشيد قام إليه أمير المؤمنين كالمشرئبِّ له، فأجلسه موضعه، وقعد بين يديه يعتذر إليه، وخاصَّةُ أمير المؤمنين قيام ينظرون إلى ما أعدَّ له من أنواع العذاب، فإذا هو جالس بين يديه، فتحدثوا طويلاً، ثم أذن له بالانصراف.

فقال لي: يا فضلُ.

قلت: لبّيك، يا أمير المؤمنين.

فقال: احمل بين يديه بَدْرةً.

فحملت: فلما صرنا إلى الدهليز الأول لخروجه، قلت:

سألتك بالذي صيَّر غضبه عليك رضاً إلا ما عرفتني ما قلت في وجه أمير المؤمنين حتى رضيَ.

فقال لي: يا فضلُ.

فقلت: لبَّيك، أيها السيِّد الفقيه.

قال: خُذ مِنّي، واحفظ عنّي.

قلت: شهد الله أنه لا إله إلا هو، اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بنور قدسك، وببركة طهارتك، وبعظمة جلالك من كلِّ عاهة، وآفةٍ، وطارق الجنِّ والإنس، إلا طارقاً يطرقني بخير.

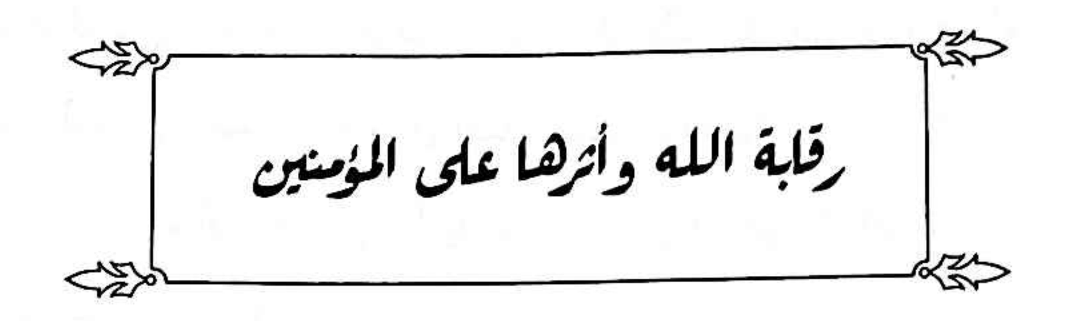
يا أرحم الراحمين، اللَّهمَّ بك ملاذي فبكَ ألوذ، وبك غياثي فبك أغوث، يا من ذلَّت له رقابُ الفراعنة، وخضعت له مقاليدُ الجبابرة.

اللَّهمَّ ذكرك شِعاري، ودثاري، ونومي، وقراري.

أشهد أن لا إله إلا أنت، اضرب عليَّ سُرادقات حفظك، وقِني رُعبي بخير منك يا رحمن.

قال الفضل: فكتبتها، وجعلتها في بركة قِباي، وكان الرشيد كثير الغضب عليَّ، وكان كلما همَّ أن يغضب أحرِّكها في وجهه فيرضى، فهذا ممَّا أدركت من بركة الشافعي). طبقات الشافعية للسبكي: ٢/ ١٥٢-١٥٣.





رقابة الله وأثرها على المؤمنين

إن الشعور برقابة الله على العباد سبب رئيسي في حماية الإنسان المسلم من الوقوع في الأخطاء، وحاجز يحجزه من الإقدام على المعاصي والذنوب، فحين يعلم المسلم أن الله تعالى مطلع عليه، ويحصي حركاته وسكناته، فإنه يفكر في كل خطوة يخطوها، وفي كل تصرف يتصرفه، وفي كل حركة يأتيها، إن كانت هذه التصرفات أو الأفكار أو الحركات منسجمة مع أوامر الله وطاعته، أم مخالفة لهذه الأوامر، ولهذا فإن أثر ذلك سيكون واضحاً في حياة المسلم، وكيف لا وهو يسمع قوله تعالى القائل في كتابه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾[ق: ٦١].

إن الشعور بهذه الرقابة سيكون له آثاره الملموسة في حياة الإنسان المسلم، ولعل أوضح ما يمثل هذا ويبينه هذين المثالين لإمامين جليلين تعرض عليهما الفتنة، فيدفعانها عن نفسيهما بحسن مراقبتهما لله تعالى:

شانك وشان صاحبة الأبواء اعجب:

١- خرج سليمان بن يسار خارجاً من المدينة ومعه رفيق له، حتى نزلوا بالأبواء[١] فقام رفيقه، فأخذ السُّفْرة، وانطلق إلى السوق يبتاع لهم، وقعد سليمان في الخيمة، وكان من أجمل الناس وجهاً، وأورع الناس، فبصرت به أعرابيّة من قُلَّة الجبل، وهي في خيمتها، فلمّا رأت حسنه وجماله انحدرت، عليها البُرقع والقفازان،

(١) الأبواء: اسم منطقة بين مكة والمدينة.

فجاءت فوقفت بين يديه، فأسفرت عن وجه لها كأنّه فلقة قمرٍ فقالت: أهبتني[1].

فظن أنها تريد طعاماً، فقام إلى فضل السُّفْرة ليعطيها.

فقالت: لست أريد هذا، إنما أُريد ما يكون من الرجل إلى أهله.

فقال: جهّزك إليَّ إبليس.

ثم وضع رأسه بين كُمَّيه، فأخذ في النحيب، فلم يزل يبكي، فلما رأت ذلك سدلت البرقع على وجهها، ورفعت رجليها بأكواب[2] حتى رجعت إلى خيمتها، فجاء رفيقه وقد ابتاع لهم ما يرفقهم، فلما رآه وقد انتفخت عيناه من البكاء، وانقطع حلقُه، قال: ما يبكيك؟

قال: خير، ذكرتُ صِبْيَتي.

قال: لا إنّ لك قصَّةً، إنما عهدك بصبيَتك منذ ثلاث أو نحوها.

فلم يزل به رفيقه حتى أخبره بشأن الأعرابيَّة، فوضع السُّفرة، وجعل يبكي بكاءً شديداً، فقال له سليمان: أنت ما يبكيك؟

قال: أنا أحقُّ بالبكاء منك.

قال: فلِمَ؟

قال: لأنّي أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها.

قال: فما زالا يبكيان.

قال: فلما انتهى سليمان إلى مكَّة وطاف وسعى، أتى الحِجر واحتبى بثوبه، فنعِس، فإذا رجلٌ وسيمٌ جميل طوال شرجب، له شارة حسنة ورائحة طيِّبة، فقال له

(١) أهبتني: لعله أهبني : أعطيني .

(٢) الأكواب: جمع كوبة: وهي الحسرة والندامة.

سليمان: من أنت رحمكَ الله؟

قال: أنا يوسف بن يعقوب.

قال: يوسف الصِّدِّيق؟

قال: نعم.

قال: إنّ في شأنك وشأن امرأة العزيز لشأناً عجيباً.

فقال له يوسف: شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب).

حلية الأولياء: ٢/ ١٩١-١٩٢ .

مالي ولعُبَيد بن عُمَير:

٢- وأما القصة الثانية فهي مع التابعي الجليل (عُبَيد بن عمير المكي) رحمه الله تعالى كما ذكرها الإمام العجلي في كتابه (الثقات) حيث قال:

حدثني أبي عبد الله قال: كانت امرأة جميلة بمكة، وكان لها زوج، فنظرتْ يوماً إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها:

أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يُفتَنُ به؟!! قال: نعم.

قالت: من؟ قال: عُبيد بن عُمَير.

قالت: فأذَنْ لي فيه فلأَفْتِنَنَّه! قال: قد أذِنتُ لكِ.

فأتته فاستفْتَتْه، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، قال: فأسفرت عن مثل فَلْقَةِ القمر!

فقال لها: يا أمةَ الله اتقي الله.

قالت: إني قد فُتِنْتُ بك فانظر في أمري!

قال: إني سائِلُكِ عن شيء فإن أنتِ صدقتِ نظرتُ في أمرِك.

قالت: لا تَسَلني عن شيء إلا صَدَقْتُكَ.

قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاكِ ليقبض روحَكِ أكان يسرُّك أني قضيتُ لك هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا. قال: صدقت.

قال: فلو أن الناس أُعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك؟ أكان يَسرُّكِ أني قضيت لك هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو أردتِ المر على الصراط، ولا تدرين أتنجين أم لا تنجين! أكان يَسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو جيءَ بالموازين وجيءَ بك لا تدري تخفين أم تثقلين! أكان يَسرُّكِ أني قضيتُ لك هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو وقفْتِ بين يدي الله للمساءَلة أكان يَسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: اتقي الله يا أمةَ الله، فقد أنعم الله عليك وأحسنَ إليكِ.

قال: فرجعت إلى زوجها.

قال: ما صَنَعْتِ؟

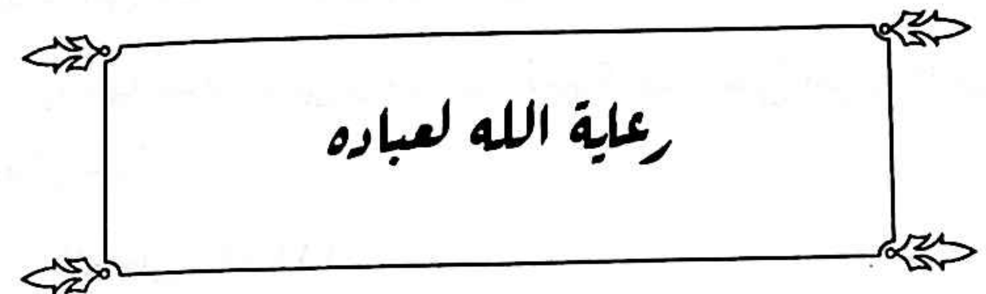
قالت: أنتَ بطال ونحن بطالون!

فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة.

فكان زوجها يقول: مالي ولعُبَيد بن عُمَير؟ أفسد عليَّ امرأتي!! كنتُ كلَّ ليلة عروساً فصيَّرها راهبة).

الثقات للعجلي: ٢/ ١١٩ .





رعاية الله لعباده

هذا فعلك بمن عصاك، فكيف رفقك بمن يطيعك:

١- جاء في كتاب (التوابين) لابن قدامة المقدسي -رحمه الله تعالى- ما نصه:

(عن يوسف بن الحسين -زاهد من العلماء-: كنتُ مع ذي النون المصري - رحمه الله تعالى - على شاطئ غدير، فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شط الغدير واقفة.

فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير، فركبتها العقرب، فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت.

فقال ذو النون: إن لهذه العقرب لشأناً فامض بنا.

فجعلنا نقفو أثرها، فإذا رجل نائم سكران، وإذا حية قد جاءت فصعدت من ناحية سرته إلى صدره، وهي تطلب أُذنه، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها، فانقلبت وانفسخت، ورجعت العقرب إلى الغدير، فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت.

فحرك ذو النون الرجل النائم ففتح عينيه فقال: يا فتى! انظر مما نجاك الله: هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أرادتك، ثم أنشأ ذو النون يقول:

يا غافلاً والجليل يحرسه ... من كل سوءٍ يدب في الظُلم

كيف تنام العيون عن ملك ... تأتيه منه فوائد النعم

فقال السكران بعد أن أفاق: إلهي! هذا فعلك بمن عصاك، فكيف رفقك بمن يطيعك). التوابين: ص٢٢٦.

كفى بالله حارساً:

٢- عن جعفر بن محمد عن أبيه قال:

عرض لعلي رجلان في خصومة، فجلس في أصل جدار، فقال له رجل: الجدار يقع.

فقال علي ﷺ: امض، كفى بالله حارساً.

فقضى بينهما، فقام، ثم سقط الجدار). تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص١٧٨

ابالموت تخوفوني ؟

٣- (قيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ:

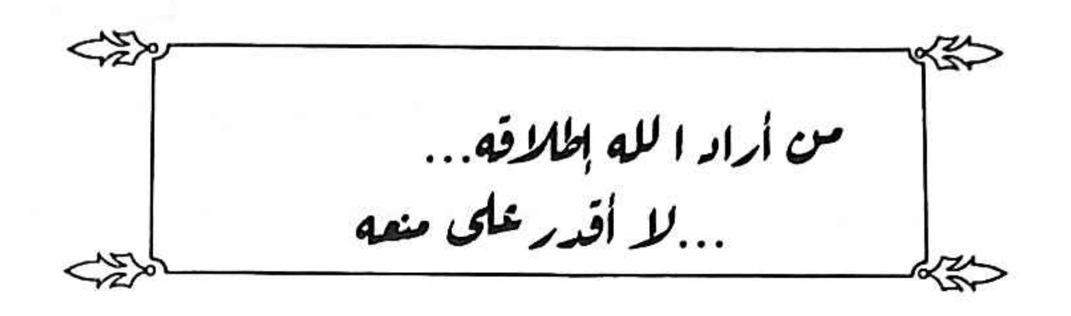
أتقاتل أهل الشام بالغداة وتظهر بالعشي في إزار ورداء ؟ !.

فقال: أبالموت تخوفوني ؟! فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أو سقط الموت علي). لباب الآداب أسامة بن منقذ: ص٢٢٢.

اعمى الله ابصارهم فلم يروني:

٤- جاء في كتاب الجامع لأحكام القرآن للأمام القرطبي - رحمه الله تعالى- فيما يحكيه عن نفسه، ما نصه:

(لقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت أمام العدو، وانحزت إلى ناحية عنه، فلم يلبث أن خرج في طلبي فارسان، وأنا في فضاء من الأرض، قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا علي، ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبلة - يعني شيطاناً- وأعمى الله عز وجل أبصارهم، فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك). الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢٧٠.



إن الله تعالى إذا قدر لإنسان سلامة ونجاة، فلن يستطيع الناس جميعاً أن يصيبوه بسوء، وإذا قدر عليه هلاكاً، وعطباً فلن تقيه الموانع، ولن تحفظه الحصون والحجاب والحراس، وهذا الاعتقاد هو الذي حرص النبي ﷺ أن يعلمه لأبناء هذه الأمة حين أوصى الصحابي الجليل عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- بقوله: «واعلم أن الأمة إن اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه اللهُ لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيء كتبه اللهُ تعالى عليك».

وقد جاء في تاريخنا الإسلامي من النماذج ما يصدق ذلك ويثبته:

فقد جاء في كتاب (وفيات الأعيان) للقاضي ابن خلكان -رحمه الله تعالى - ما نصه:

(ذكر الحميدي في كتاب (جذوة المقتبس) أن الوزير المذكور -يعني أبا عمر أحمد ابن سعيد بن حزم والد ابن حزم- كان جالساً بين يدي مخدومه المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر في بعض مجالسه العامة، فرفعت إليه رقعة استعطاف لأم رجل مسجون، كان المنصور اعتقله حنقاً عليه لجرم استعظمه منه.

فلما قرأها اشتدَّ غضبُه وقال: ذكَّرتني -واللهِ- به، وأخذَ القلم وأراد أن يكتب: يُصلَب، فكتب: يُطلَق، ورمى الورقة إلى وزيره المذكور، وأخذ الوزير القلم وتناول الورقة وجعل يكتب بمقتضى التوقيع إلى صاحب الشرطة.

فقال له المنصور: ما هذا الذي تكتب؟ قال: بإطلاق فلان إلى صاحب

الشرطة، فَحَرِدَ وقال: من أَمركَ بهذا؟ فناوله التوقيع.

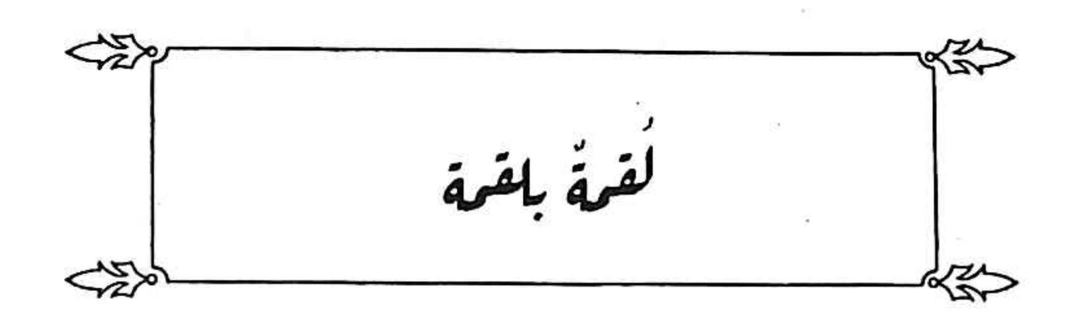
فلما رآه قال: وَهِمتُ، والله لَيُصلَبَنَّ، ثم خَطَّ على التوقيع، وأراد أن يكتب: (يُصلَب)، فكتب (يُطلَق) فأخذ الوزير الورقة، وأراد أن يكتب إلى الوالي بالإطلاق، فنظر إليه المنصور وغضب أشدَّ من الأول، وقال: من أمرك بهذا؟ فناوله التوقيع فرأى خطه، فخطَّ عليه.

وأراد أن يكتب: (يُصلَب) فكتب: (يطلق)، وأخذ الوزير التوقيع وشرع في الكتابة إلى الوالي، فرآه المنصور فأنكر أكثر من المرتين الأولبين، فأراه خطه بالإطلاق.

فلما رآه عجب من ذلك، وقال:

نعم، يُطلَق على رَغْمي، فمن أراد الله إطلاقه لا أقدر أنا على منعه). وفيات الأعيان: ٣/ ٣٢٨-٣٢٩.





لُقمةٌ بلقمة

الصدقة تطهر النفس وتزكيها، وتنمي مشاعر الخير وتقويها، وتدل على نبل الأخلاق والبعد عن الشح، تدفع البلاء، وترد المصائب، وتطفىء غضب الرب، وتجلب محبة الناس، وترفع الدرجات عند الله تبارك وتعالى.

وكم من كرب شديد ردته صدقة، وكم من مال قليل كثرته الصدقة، وكم من مريض ساعدت في شفائه صدقة، وكم وكم!!

ومن أوضح الأمثلة التي تدل على هذا، قصة عجيبة ساقها صاحب كتاب: (مختصر نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي -رحمه الله- حيث يقول:

(حدثني أبو بكر البسطامي، غلام ابن دريد، قال: كان لامرأة ابنٌ غاب عنها، غيبة منقطعة.

فجلست تأكل يوماً، فحين قطعت لقمة، وأهوت بها إلى فيها، تصدق منها سائل وقف بالباب، فامتنعت عن أكل اللقمة، وحملتها مع تمام الرغيف، فتصدقت بها، وبقيت جائعة.

وكانت شديدة الحذر على ابنها، والدعاء برده، فما مضت إلا ليالٍ يسيرة على هذا الحديث، حتى قدم ابنها، فأخبر بشدائد مرت به عظيمة.

وقال: أعظم شيء مر على رأسي، أني كنت في وقت كذا، أسلك أجمة في البلد

الفلاني، إذ خرج أسد، فقبض عليَّ من حمار كنت فوقه، فغار الحمار[1]، فتشبكت مخالب السبع، في مرقعة كانت عليَّ، فما وصلت إلي، وذهب عقلي، وجرني فأدخلني الأجمة.

فما هو إلا أن برك علي ليفترسني، حتى رأيت رجلاً عظيم الخلق، أبيض الوجه والثياب، وقد جاء حتى قبض على قفا الأسد، وشاله[2] حتى خبط به الأرض، وقال: قم يا كلب، لقمة بلقمة.

فقام السبع مهرولاً، وثاب إليّ عقلي، وطلبت الرجل، فلم أجده.

وجلست ساعات، إلى أن عادت إليَّ قوتي، ثم نظرت إلى نفسي، فلم أجد بها بأساً، فمشيت، فلحقت بالقافلة، وأخبرتهم فعجبوا من خلاصي، ولم أدر ما معنى لقمة بلقمة.

فنظرت المرأة إلى الوقت، فإذا هو الوقت الذي أخرجت اللقمة من فيها، فتصدقت بها، فأخبرته الخبر). مختصر نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ١/ ٧٠.



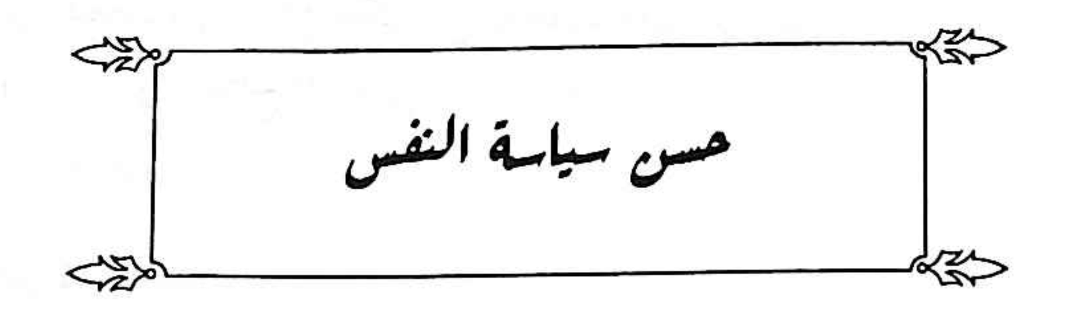
---

(١) غار الحمار: أسرع في عدوه.

(٢) شاله: رفعه.

الفصل الثالث

صور من أدب السلوك
مع النفس تهذيباً وتربية



حسن سياسة النفس

إن من فقه السير إلى الله حسن سياسة النفس حتى تستمر على انطلاقها إلى الله تعالى، ولذلك فإن للنفس حالتين لا ثالث لهما – حالة النشاط والقوة، وحالة الفتور والإدبار، ولكل منهما فقه خاص للتعامل مع النفس فقد جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ ﷺ: (.. فَإِنَّ لِكُلِّ عَابِدٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَإِمَّا إِلَى سُنَّةٍ، وَإِمَّا إِلَى بِدْعَةٍ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ).

أخرجه احمد في المسند: ٢/ ١٥٨، ١٦٥، ١٨٨، ٢١٠ وإسناده صحيح.

وفي ذلك يقول ابن القيم – رحمه الله –: (إن للقلوب شهوة وإدباراً، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها). الفوائد (١٤٧).

وجاء عن ابن مسعود ﷺ: (إن هذه القلوب شهوة وإقبالاً، وإن لها فترة وإدباراً، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها). شرح السنة: ١/ ٥٩، والحلية ١/ ١٣.

فعلينا أن نحسن سياسة أنفسنا ففي حالة الإقبال، نكثر من الأعمال الصالحة والعبادات، ونلزمها بنوافل الأعمال والسنن، ونأمرها بأداء التكاليف ليلاً ونهاراً، وفي حالة فتورها نلزمها الفرائض الواجبة من العبادات، ونعاملها برفق ولين حتى تقبل، فإن أقبلت شددنا عليها مرة أخرى.

والنصيحة الغالية في هذا الموطن: لا تكن مع نفسك كالعصا فتكسر، أو

كالليمون فتعصر، وإنما كن حكيماً في تعاملك معها، ووجّهها حين إدبارها إلى عمل سهل و يسير، ولا يحتاج إلى مجهود لبذله، ولكنه في نفس الوقت عمل إيجابي، فيه أجر من الله تعالى.

مَنْ سَاسَ نَفْسَهُ سَادَ نَاسَهُ:

على الإنسان أَنْ لا يَسْبِقَ إِلَى حُسْنِ الظَّنِّ بِنَفْسِهِ، فَيَخْفَى عَنْهُ مَذْمُومُ شِيَمِهِ وَمَسَاوِئُ أَخْلاقِهِ ؛ لأَنَّ النُّفُوسَ بِالشَّهَوَاتِ آمِرَةٌ، وَعَنْ الرُّشْدِ زَاجِرَةٌ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[يوسف: ٥٣].

فَأَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ فَقَالَ:

قَلْبِي إِلَى مَا ضَرَّنِي دَاعِي ... يُكْثِرُ أَسْقَامِي وَأَوْجَاعِي
كَيْفَ احْتِرَاسِي مِنْ عَدُوِّي ... إِذَا كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلاعِي

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه -: الْعَاجِزُ مَنْ عَجَزَ عَنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ سَاسَ نَفْسَهُ سَادَ نَاسَهُ.

فَأَمَّا سُوءُ الظَّنِّ بِهَا فَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ كَرِهَهُ لِمَا فِيهِ مِنْ اتِّهَامِ طَاعَتِهَا، وَرَدِّ مُنَاصَحَتِهَا.

وَقَدْ قَالَ الْجَاحِظُ فِي كِتَابِ الْبَيَانِ: "يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي التُّهْمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلاً، وَفِي حُسْنِ الظَّنِّ بِهَا مُقْتَصِدًا، فَإِنَّهُ إِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ الْحَقِّ فِي التُّهْمَةِ ظَلَمَهَا فَأَوْدَعَهَا ذِلَّةَ الْمَظْلُومِينَ، وَإِنْ تَجَاوَزَ بِهَا الْحَقَّ فِي مِقْدَارِ حُسْنِ الظَّنِّ أَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ الآمِنِينَ، وَلِكُلِّ ذَلِكَ مِقْدَارٌ مِنْ الشُّغْلِ، وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنْ الْوَهْنِ، وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنْ الْجَهْلِ".

وَقَالَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ- رحمه الله تعالى -: مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ كَانَ لِغَيْرِهِ أَظْلَمَ،

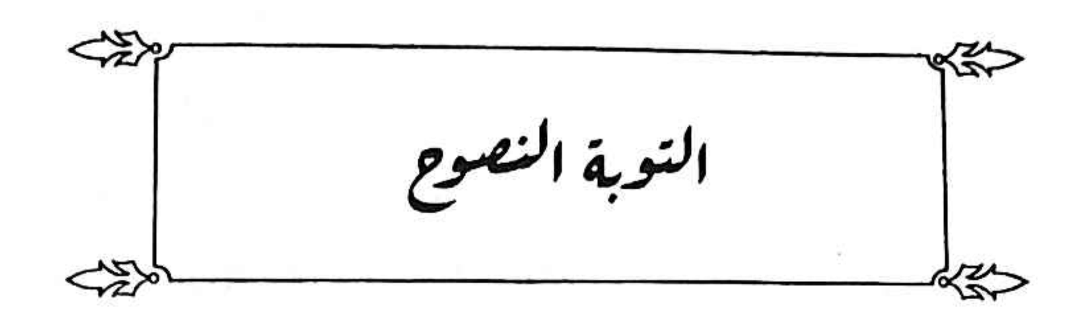
وَمَنْ هَدَمَ دِينَهُ كَانَ لِمَجْدِهِ أَهْدَمَ.

وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ سُوءَ الظَّنِّ بِهَا أَبْلَغُ فِي صَلاحِهَا، وَأَوْفَرُ فِي اجْتِهَادِهَا؛ لأَنَّ لِلنَّفْسِ جَوْرًا لا يَنْفَكُّ إلا بِالسَّخَطِ عَلَيْهَا، وَغُرُورًا لا يَنْكَشِفُ إلا بِالتُّهْمَةِ لَهَا؛ لأَنَّهَا مَحْبُوبَةٌ تَجُورُ إِدْلالاً وَتَغُرُّ مَكْرًا، فَإِنْ لَمْ يُسِئْ الظَّنَّ بِهَا غَلَبَ عَلَيْهِ جَوْرُهَا، وَتَمَوَّهَ عَلَيْهِ غُرُورُهَا فَصَارَ بِمَيْسُورِهَا قَانِعًا، وَبِالشُّبْهَةِ مِنْ أَفْعَالِهَا رَاضِيًا.

وَقَدْ قَالَتْ الْحُكَمَاءُ: مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ أَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ. (أدب الدنيا والدين للماوردي).

وسأورد فيما يلي نماذج من حسن سياسة النفس ورعايتها من خلال صور تطبيقية واقعية.





التوبة النصوح

إن توبة العبد من ذنوبه قبل موته، وفي حال حياته، منحة ربانية، وفضل كبير على العبد، فالتوبة حالة مصاحبة له لا تفارقه حتى الممات، فالتوبة هي البداية بالنسبة للعبد، وهي النهاية بالنسبة له أيضاً، فحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية ضرورية كذلك، ولذلك جاء الحث عليها في كتاب الله تعالى في قوله عز من قائل: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣١].

فسعيدٌ هو من رزقه الله تعالى التوبة، وأسعد منه من رزقه الله توبةً صادقة نصوحاً، عملاً بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[التحريم: ٨]، ولعل أفضل ما يوضح هذا الكلام، ويثبته في القلوب، أن نذكر حادثتين لإمامين جليلين صدقا في توبتهما، فانتقلا بتوبتهما النصوح من ذل المعصية والذنوب، إلى عز الطاعة:

كله من عندك:

١- عن أبي جعفر السائح، قال:

(كان حبيب أبو محمد - رحمه الله تعالى - تاجراً يُكري الدراهم، فمرَّ ذات يومٍ، فإذا هو بصبيان يلعبون، فقال بعضهم لبعض: قد جاء آكل الربا

فنكس رأسه، وقال: يا ربِّ، أفشيت سرِّي إلى الصبيان.

فرجع، فجمع ماله كلَّه، وقال: يا ربِّ، إني أسيرٌ، وإنِّي قد اشتريت نفسي

منك بهذا المال، فأعتقني.

فلما أصبح، تصدَّق بالمال كُلِّه، وأخذ في العبادة.

ثمَّ مرَّ ذات يوم بأولئك الصبيان، فلما رأوه؟ قال بعضهم لبعض:

اسكتوا، فقد جاء حبيبُ العابد.

فبكى، وقال: يا ربِّ تذمُّ مرةً، وتحمد مرَّةً، وكله من عندك). جامع العلوم والحكم: ٢/ ١٥٧-١٥٨ .

بلى يا رب قد آن:

٢- قال: أبو عمَّار الحسين بن حُرَيث(تلميذ الفضيل):

(سمعت الفضل بن موسى يقول: كان الفُضيل بن عياض شاطِراً يقطعُ الطريق بين أَبِيْوَرْدَ وسَرْخَس! وكان سببُ توبته أنه عشِقَ جارية، فبينما هو يرتقي الجُدرانَ إليها، إذ سَمِعَ تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الحديد: ٦١].

فلما سمعها قال: بلى يا رب قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خُرْبة، فإذا فيها سابِلةٌ -أي جماعة من المارَّة واقفين فيها- فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نُصبحَ فإنَّ فُضَيلاً على الطريق يقطعُ علينا!

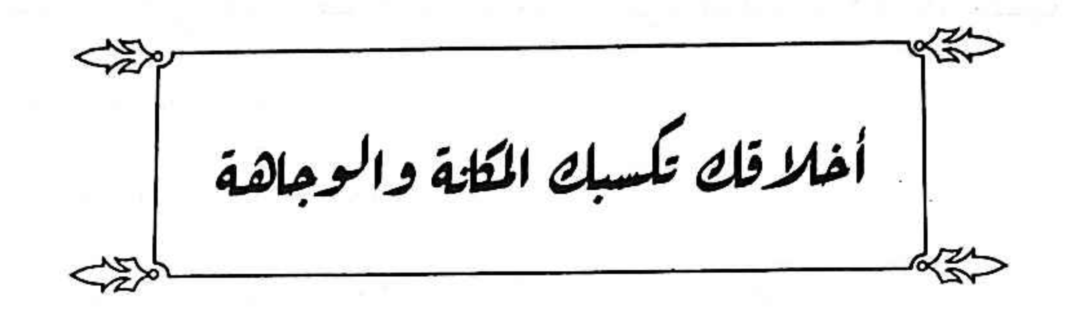
قال: ففكَّرتُ قلتُ: أنا أسعَى بالليل في المعاصي!! وقومٌ من المسلمين يخافونني هاهنا! وما أرى اللهَ ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم: إني قد تُبتُ إليك، وجعلتُ توبتي مُجاوَرَةَ البيت الحرام، وانتقلَ إلى مكة فنزلها وجاور فيها إلى أن مات بها.

قال إبراهيم بن الأشعث خادم الفضيل: ما رأيت أحداً كان اللهُ في صدره أعظمَ من الفُضَيل، كان إذا ذُكِرَ اللهُ عنده، أو سَمِعَ القرآن: ظهر به الخوفُ والحزن، وفاضت عيناه فبكى حتى يرحمه من بحضرته.

قال رباح بن خالد: قال لي عبدُ الله بن المبارك: إذا نَظَرت إلى الفُضَيل، جَدَّدَ ليَ الحُزن، ومَقَتُّ نفسي! ثم بكى). تهذيب التهذيب: ٨/ ٢٩٤-٢٩٦

فهذه هي التوبة الصادقة النصوح، التي تأتي بالأنوار الصادقة.





أخلاقك تكسبك المكانة والوجاهة

باي شيء سدت تميماً:

١ - جاء في كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي:

(قال رجل للأحنف بن قيس - رحمه الله تعالى -: بأي شيء سدت تميماً ؟ فوالله ما أنت بأجودهم ولا أشجعهم، ولا أجملهم، ولا أشرفهم.

قال: بخلاف ما أنت فيه.

قال: وما خلاف ما أنا فيه ؟

قال: تركي مالا يعنيني من أمور الناس كما عناك من أمري ما لا يعنيك). [الإمتاع والمؤانسة: ٣/ ١٧٣].

حق لك ان تكون سيداً شريفاً:

٢- وجاء في كتاب فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي - رحمه الله تعالى -:

(حكى أبو اليقظان قال:

دخل أسماء بن خارجة - رحمه الله تعالى - على عبد الملك بن مروان - رحمهم الله تعالى - فقال له:

بم سدت الناس ؟.

فقال: هو من غيري أحسن.

فقال له: بلغني عنك خصال شريفة، وأنا أعزم عليك ألا ذكرت بعضها.

فقال: أما إذا عزمت عليَّ فنعم.

فقال عبد الملك: هذه أولها.

فقال أسماء: ما سألني أحد حاجة إلا ورأيت له الفضل عليَّ.

ولا دعوت أحداً إلى طعام إلا ورأيت له المنة عليَّ.

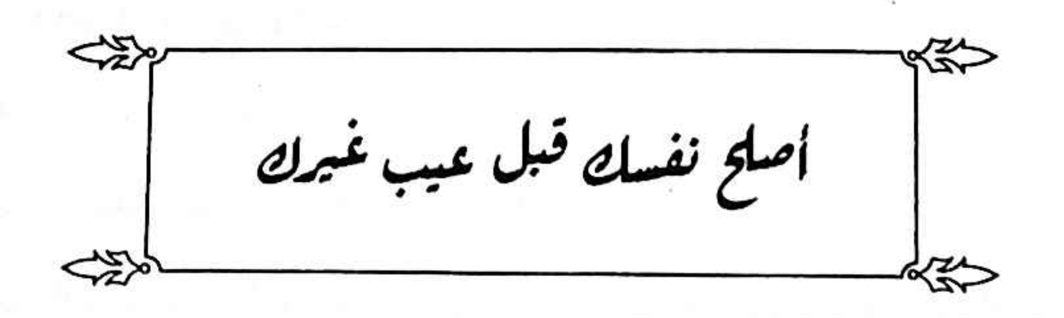
ولا جلس إليَّ رجل إلا ورأيت له الفضل عليَّ.

ولا قصدني أحد في حاجة إلا وبالغت في قضائها.

ولا شتمت أحداً قط، لأنه إنما يشتمني أحد رجلين، إما كريم فكانت منه هفوة فأنا أحق بعفوها، وإما لئيم فأصون عرضي منه.

فقال له عبد الملك: حق لك أن تكون سيداً شريفاً). [فوات الوفيات: ١/١٦٨-١٦٩].





أصلح نفسك قبل عيب غيرك

إن الأساس الذي يقوم عليه الإصلاح، هو إصلاح النفس واستقامتها على الخير، التزاماً بقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس: ٩، ١٠] ومن ثمَّ فإن محاسبة المسلم لنفسه، وتعرفه على عيوبه بقصد معالجتها من أهم ما ينبغي أن يحرص عليه المسلم.

فالمسلم في حاجة إلى مراقبة نفسه، ومراجعتها لاكتشاف الخطأ، أو التعرف على العيب، ثم المحاسبة ليخلص نفسه من الأدران، إذ إن المسلم كثيراً ما ينسى أن عليه أن يراجع نفسه، ويقوِّم أخطاءه ويصلح عيوبه قبل أن يصلح عيوب الغير، لأن تقصيره في هذا الأمر سيؤدي إلى تساهله في تَصيُّد عيوب الآخرين، وتضخيم هفواتهم، وينسى أن الناس جميعاً خطاؤون وخير الخطائين التوابون.

وقديماً كان يقال: كفى بالمرء عيباً أن يستبينَ له من الناسِ ما يَخفى عليه من نفسه، أو يمقت الناسَ فيما يأتي مِثلَهُ، أو يُؤذي جليسَهُ، أو يقول في الناسِ ما لا يعنيه.

ومن الأمثلة في هذا الباب:

لم اعد إلى عيب احد مطلقاً:

١ - ما جاء عن سفيان بن حسين الواسطي قال:

(ذكرتُ رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية المُزَني[1] - رحمه الله تعالى - قاضي

(١) إياس بن معاوية: تابعي يضرب المثل بذكائه .

البصرة، فنظر في وجهي وقال:

أغزوتَ الروم؟ قلت: لا!

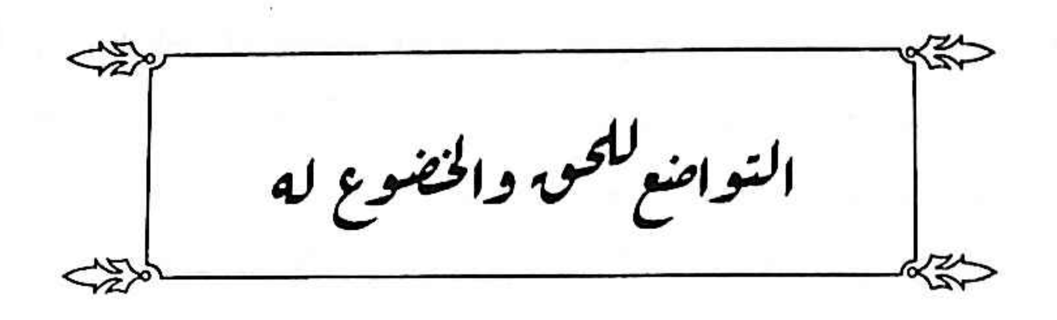
قال: السِّندَ والهندَ والتُركَ؟ قلت: لا!

قال: أفسلمَ منك الروم والسند والهند والترك، ولم يَسلم منك أخوكَ المسلم؟!

قال سفيان: فلم أَعد بعدها -يعني إلى عيب أحدٍ من الناس أو غيبته). [البداية والنهاية: ٩/ ٣٣٦، وتهذيب الكمال: ٣/ ٤١٢].

٢- وقد جاء عن عبد الله بن وهب - رحمه الله تعالى - أنه قال: (جعلت على نفسي كلما اغتبتُ إنساناً صيام يوم، فهانَ عليَّ، فجعلتُ عليها كلما اغتبت إنساناً صدقة درهم، فثقُلَ عليَّ وتركت الغيبة). ترتيب المدارك: ٣/ ٢٤٠.





التواضع للحق والخضوع له

إن التواضع للحق والخضوع له هو شأن أهل الإيمان، فإنهم إذا عرفوا الحق سارعوا إليه، وإذا كشفوا الباطل في نفوسهم تنكروا له وعدلوا عنه، فهم ليسوا من الذين تأخذهم العزة بالإثم إذا ذكروا بأنهم خالفوا الحق، وإنما هم من الذين إذا أخطؤوا تذكروا أو ذكروا بالحق أنابوا إليه، فإذا هم مبصرون، فالرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل وهو دلالة على إيمان صاحبه وفضله وديانته.

بل إن أصحاب الحكمة والعقل هم الذين يبادرون بالرجوع إلى الحق إذا اكتشفوا أنهم أخطؤوا في أقوالهم أو أفعالهم، أو بصرهم غيرهم بخطئهم.

مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل:

وهانحن نقف أمام وصية رائعة من عمر بن الخطاب ﷺأرسلها إلى أبي موسى الأشعري لا يملك الإنسان نفسه أمام كلماتها إلا الوقوف معجباً بهذه الحكمة التي تفيض من كل كلمة من كلماتها، فقد جاء:

عن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري - ﷺ- كتاباً فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس: سلام عليك، أما بعد:

فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أولي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين الناس إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق لا يبطله شيء.

واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة، واعرف الأشباه والأمثال ثم قس الأمور عند ذلك، ثم اعمد لأحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى.

اجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا استحللت عليه القضاء، والمسلمون عدول في الشهادة، إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنينا في ولاء أو قربة.

إن الله تعالى تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات، وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر وحسن الذخر، فإنه من صلحت سريرته فيما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للدنيا بغير ما يعلم الله من شأنه شانه الله، والسلام) عيون الأخبار لابن قتيبة: ١/ ١٣٣.

لأن اكون ذنباً في الحق احبُ إليَّ من ان اكونَ راساً في الباطل:

١ - فقد جاء في ترجمة عبيد الله بن الحسن البصري العنبري - رحمه الله تعالى - أحد سادات أهل البصرة وفقهائها وعلمائها ما يدل على ذلك:

(قال عبد الرحمن بن مهدي - رحمه الله تعالى - تلميذه:

كنا في جنازة فسألته عن مسألة فغلِطَ فيها، فقلت له - وأنا يومئذ حدث:

أصلحك الله ليس هكذا، القول فيها كذا وكذا.

فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال: صدقت يا غلام، إذاً أرجع إلى قولك وأنا صاغر، لأن أكون ذنباً في الحق أحبُّ إليَّ من أن أكونَ رأساً في الباطل). [تهذيب التهذيب: ٧/ ٧].

وضع خده بالأرض خضوعاً للحق:

٢- وقد جاء في ترجمة مالك بن مِغْوَل الكوفي -رحمه الله تعالى - ما نصه:

(قال أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى -: سمعت سفيان بن عيينة - رحمه الله تعالى- يقول: قال رجل لمالك بن مِغْوَل: اتق الله، فوضع خدَّهُ بالأرض). تهذيب التهذيب: ١٠/ ٢٢ .

ما بيني وبين الحق من عداوة:

٣- وشبيه بذلك ما نقل عن عمرو بن عبيد أنه قال في مسألة رأيا فأخطأ فيه، فناقشه واصل بن عطاء فتبين لعمرو بن عبيد وجه الحق فيما قال واصل، وبأنه أخطأ في قوله، فرجع إلى الحق قائلاً:

(ما بيني وبين الحق من عداوة، والقول قولك، وأُشهد من حضر أني تارك ما كنت عليه، فاستحسن الناس ذلك منه). المنية والأمل لابن المرتضى: ص٥١ .

رغم انفي للحق:

٤- جاء في ترجمة الإمام الفقيه قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف، أبي محمد البياني - رحمه الله تعالى -، ما نصه:

أن قاسم بن أصبغ قال:

(لما رحلت إلى المشرق نزلت القيروان، فأخذت عن بكر بن حماد حديث مسدد، فقرأت عليه يوماً فيه حديث النبي ﷺ: أنه قدم عليه قوم من مضر مجتابي

النمار.

فقال: إنما هو مجتابي الثمار.

فقلت: إنما هو مجتابي النمار، هكذا قرأته على كل من لقيته بالأندلس والعراق.

فقال لي: بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا ؟ أو نحو هذا.

ثم قال لي: قم بنا إلى ذلك الشيخ - لشيخ كان في المسجد - فإن له بمثل هذا علماً.

فقمنا إليه، وسألناه عن ذلك، فقال: إنما هو مجتابي النمار كما قلت، وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم، والنمار: جمع نمرة.

فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه:

رغم أنفي للحق، وانصرف). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشيخ أحمد بن المقري التلمساني: ٢/٤٨-٤٩.

تواضع للحق تعلو من خالفك:

٥- قال أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة - رحمهما الله تعالى -:

(يا قوم أريدوا بعلمكم الله تعالى، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم.

ولم أجلس مجلساً أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح). تذكرة السامع والمتكلم: ص٦٩ .

الحق معك:

٦- جاء في ترجمة القاضي الفقيه إياس بن معاوية بن قرة المزني -رحمه الله

تعالى - ما نصه:

(عن إياس أنه قال: ما غلبني أحد قط، سوى رجل واحد، وذلك أني كنت في مجلس القضاء بالبصرة، فدخل علي رجل شهد عندي أن البستان الفلاني - وذكر حدوده- هو ملك فلان، فقلت له: كم عدد شجره ؟.

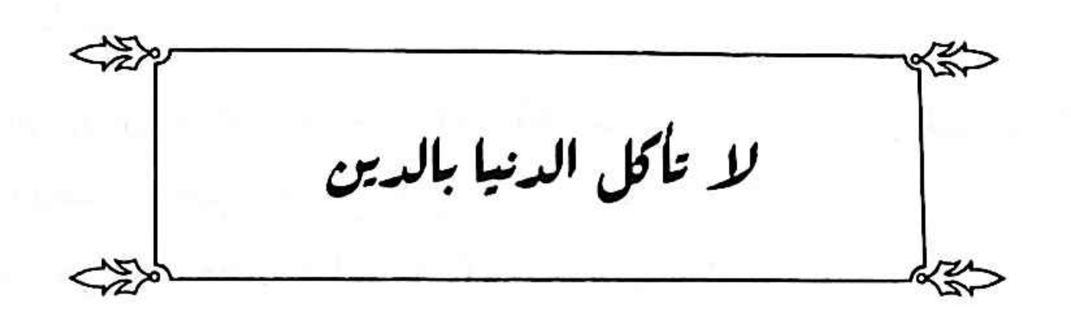
فسكت. ثم قال: منذ كم يحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس ؟.

فقلت: منذ كذا ؟.

فقال: كم عدد خشب سقفه ؟.

فقلت له: الحق معك، وأجزت شهادته). وفيات الأعيان: ١/ ٢٤٩.





لا تأكل الدنيا بالدين

إن الله - عز وجل- أمرنا بطاعته، وحذرنا من معصيته، وميز الناس وجعلهم أصنافاً متنوعة، فمنهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم الطائع ومنهم العاصي، وجعل لكل منهم صفات يتصفون ويتميزون بها، وجعل أهل طاعته متمايزين، منهم العالم ومنهم العامي، وحذر أهل العلم من أن يجعلوا من علمهم سلماً يرتقون به لنيل الدنيا، أو جعل العلم والدين والصلاح وسيلة لخداع الناس وأكل أموالهم بالباطل، فقد قال الله تعالى محذراً ومبيناً: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ ﴾[التوبة: ٣٤].

وبعد أن بين طريقة الأحبار والرهبان في أكل أموال الناس بالباطل، حذر من مغبة فعلهم هذا، وأن يفعل علماء هذه الأمة مثل فعلهم، وبين عاقبتهم يوم القيامة بقوله: ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[التوبة: ٣٥].

بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً:

١- عن الحسن البصري - رحمه الله تعالى - قال:

(يا ا بن آدم عملك، عملك، فإنما هو لحمك ودمك، فانظر على أي حال تلقى عملك.

إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها: صدق الحديث، ووفاء بالعهد، وصلة

الرحم، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة المباهاة للناس، وحسن الخلق، وسعة الخلق فيما يقرب إلى الله.

يا بن آدم إنك ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره، فلا تحقرن من الخير شيئاً، وإن هو صغر، فإنك إذا رأيته سرك مكانه، ولا تحقرن من الشر شيئاً، فإنك إذا رأيته ساءك مكانه. رحم الله رجلاً كسب طيباً، وأنفق قصداً، وقدم فضلاً ليوم فقره وفاقته، هيهات، هيهات، ذهبت الدنيا بحال بالها، وبقيت الأعمال قلائد في أعناقكم، أنتم تسوقون الناس، والساعة تسوقكم، وقد أسرع بخياركم، فماذا تنتظرون؟ المعاينة فكأن قد، إنه لا كتاب بعد كتابكم، ولا نبي بعد نبيكم.

يا بن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبيعن آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا). تهذيب الكمال: ٦/ ١١٦، وحلية الأولياء: ٢/ ١٤٣.

اقرا وتمعن بعناية فائقة:

٢- ومن تلك النماذج العظيمة التي رفضت أن تأكل الدنيا بالدين هذا النموذج العظيم للإمام الفقيه العابد (البهلول بن راشد القيرواني المالكي) - رحمه الله تعالى - أحد أصحاب الإمام مالك رحمة الله تعالى:

(دَفَع بُهلول إلى بعض أصحابه دينارين ليشتري له بهما زيتاً يستعذِبُه له، فذُكِرَ للرجل أن عند نصراني زيتاً أعذبَ ما يوجد، فانطلق إليه الرجل بالدينارين، فأخبرَ النصرانيَّ أنه يريد زيتاً عذباً للبهلول.

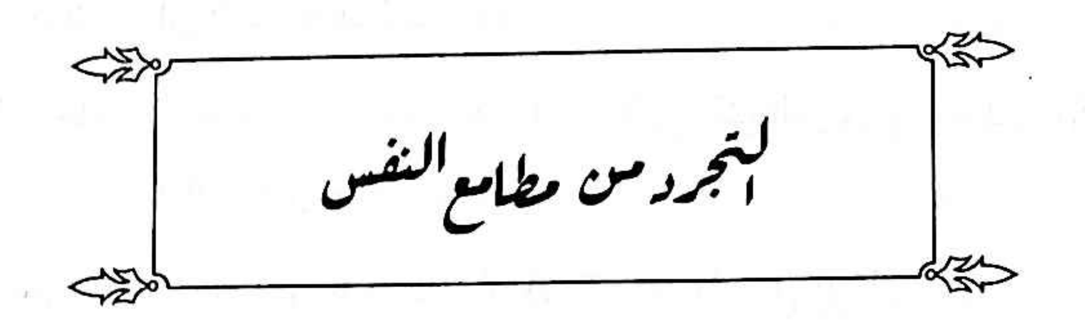
فقال النصراني: نحن نتقرَّبُ إلى الله بالبُهلول كما تتقربون أنتم به إليه. وأعطاه بالدينارين من ذلك الزيت، ما يُعطى بأربعة دنانير من دنيِّ الزيت، ثم أقبلَ إلى بهلول فأخبره الخبر.

فقال له بهلول: قضيت حاجةً فاقض لي أخرى، رُدَّ عليَّ الدينارين.

فقال: ولم؟

قـال: ذكـرتُ قـولَ الله تعـالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[المجادلة: ٢٢] فخشـيت أن آكـل زيـت النصـراني، فأجد له في قلبي مَودة، فأكون ممن حادَّ الله ورسوله على عرض من الدنيا يسير).

ترتيب المدارك: ٣/ ٩٨.



التجرد من مطامع النفس

والتجرد يعني أن يتخلص لفكرته مما سواها من المبادئ والأشخاص، لأنها أسمى الفكر وأجمعها وأعلاها ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ويتخلص من مطامع نفسه وأهوائها، وهذه بلا شك منزلة عالية لا يصل إليها إلا القليل من الناس، وسأورد فيما يلي نماذج وأحداثاً تثبت أن هناك من تخلصوا من حظوظ أنفسهم، وتجردوا لنفع من حولهم، فأعلى الله مكانتهم، وأعلى في العالمين ذكرهم.

ما سألت الدنيا من يملكها:

١ - قال ابن عُيَيْنة - رحمه الله تعالى -:

دخل هشام الكعبةَ فإذا هو بسالم بن عبد الله - رحمه الله تعالى -.

فقال: سَلْني حاجةً.

قال: إنّي أستحيي من الله أنْ أسألَ في بيته غَيْرَه.

فلمَّا خرجا، قال: الآن فسلني حاجةً.

فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟.

فقال: من حوائج الدنيا.

قال: والله ما سألتُ الدُّنيا من يَملِكُها، فكيف أسألُها مَن لا يملِكُها). [سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٦٦].

رفعت حوائجي لمن لا تمنع الحوائج دونه:

٢- جاء في كتاب المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري وحلية الأولياء لأبي نعيم - رحمه الله تعالى - ما نصه:

(قدم هشام (يعني ا بن عبد الملك) المدينة مرة، فأرسل إلى أبي حازم- رحمه الله تعالى - فقال له: يا أبا حازم عظني وأوجز.

قال أبو حازم: اتق الله وازهد في الدنيا، فإن حلالها حساب، وحرامها عذاب.

قال: لقد أوجزت يا أبا حازم.

ثم قال له: يا أبا حازم ارفع حوائجك إلى أمير المؤمنين.

قال أبو حازم:

هيهات، هيهات !! قد رفعت حوائجي إلى من لا تختزل الحوائج دونه، فما أعطاني منها قنعت به، وما منعني منها رضيت، وقد نظرت في هذا الأمر فإذا هو نصفين، أحدهما لي، والآخر لغيري، فأما ما كان لي فلو احتلت فيه بكل حيلة ما وصلت إلي قبل أوانه الذي قدر لي فيه، وأما الذي لغيري فذلك الذي لا أُطمع نفسي فيما مضى، ولم أطمعها فيما بقي، وكما منع غيري رزقي، كذلك منعت رزق غيري، فعلام أقتل نفسي). المجالسة وجواهر العلم: ص ٥١٠، حلية الأولياء ٣/ ٢٣٧.

ما لي إليه حاجة:

٣- عن ابن عيينة قال:

(قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - لطاووس - رحمه الله تعالى -:

ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين - يعني سليمان بن عبد الملك.

قال: ما لي إليه حاجة.

فكأن عمر عجب من ذلك.

قال سفيان: وخلف لنا إبراهيم بن ميسرة وهو مستقبل الكعبة:

ورب هذه البنية، ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة إلا طاووساً).

سير أعلام النبلاء ج: ٥ ص: ٤١ .

هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد:

٤- قال الأصمعي - رحمه الله تعالى -:

دخل عطاء بن أبي رباح - رحمه الله تعالى - على عبد الملك - رحمه الله تعالى -، وهو جالس على السرير، وحوله الأشراف، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به عبد الملك، قام إليه فسلم عليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟

قال: يا أمير المؤمنين ! اتق الله في حرم الله، وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة.

واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس.

واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم.

واتق الله فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك.

فقال له: أفعل.

ثم نهض وقام.

فقبض عليه عبد الملك وقال: يا أبا محمد ! إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك ؟.

قال: ما لي إلى مخلوق حاجة.

ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد). سير أعلام النبلاء ج: ٥ ص: ٨٤.

لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت:

٥- جاء في ترجمة العالم الجليل أبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني - رحمه الله تعالى -، ما نصه:

قال ابن حزم - رحمه الله تعالى -: (ومن أعظم ما يحكى من المكارم التي لم نسمع لها أختاً:

أن أبا الوليد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن المعروف بابن الفرضي حدثني:

أن أبا الجيش مجاهداً - يعني العامري - صاحب الجزائر ودانية، وجه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية، وأبو غالب ساكن بها ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور - يعني تلقيح العين - مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد، فرد الدنانير وأبى ذلك، ولم يفتح في هذا بابا البتة، وقال:

والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت، ولا استجزت الكذب، لأني لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب.

فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها). نفح الطيب: ٣/ ١٧٢، جذوة المقتبس للحميدي: ص١٧٢.

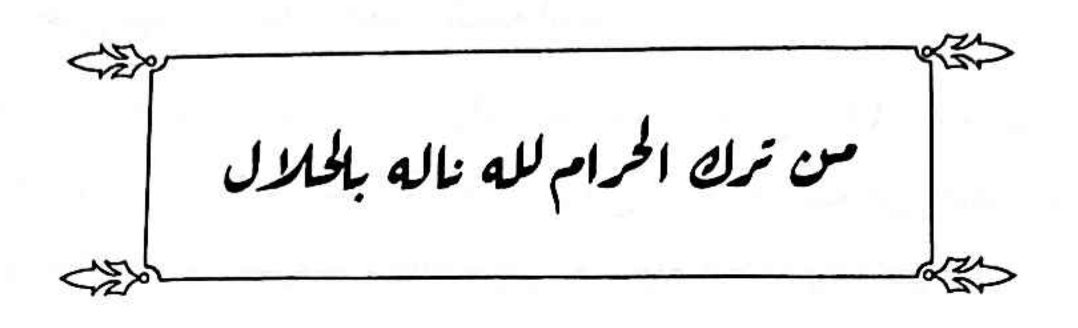
المؤمن لا يشفى غيظه:

٦- عن نوفل بن ميمون - رحمه الله تعالى - قال:

(جاء سعيد بن سليمان - رحمه الله تعالى - إلى عبد الله بن محمد بن عمران - رحمه الله تعالى - شاهداً، فرد شهادته.

فلما ولي سعيد القضاء، جاءه عبد الله بن محمد بن عمران شاهداً، فأخذ شهادته، فنظر فيها ساعة، ثم رفع رأسه، فقال:

المؤمن لا يشفى غيظه، أوقع شهادته يا ابن دينار، فأوقعها)[تاريخ بغداد: ٩/ ٦٦].



من ترك الحرام لله ناله بالحلال

إن الله تعالى جعل في الحلال غِنىً عن الحرام في كل شيء، وكم من ممتنع عن الحرام خشية الله، نوَّلَهُ الله إياه حلالاً بشرعةِ الله، ولم يكن الزمن بين نيلِهِ حراماً وبين نيله حلالاً إلا لمحةً: يوماً أو بعض يوم، وما أصدق قولَ الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري رحمه الله تعالى: جَلَّ رَبُّنا أن يعاملَهُ العبدُ نقداً فيُجازيَهُ نسيئة.

وإليك أخي المسلم هذا الخبرَ العُجَاب، لتشهد فيه تعويضَ ربِّ الأرباب سبحانه: (جاء عن الأمير بدر الدين يوسف المِهْمَنْدار بن الأمير سيف الدين أبي المعالي بن رماح المعروف بمِهْمَنْدار العَرَب: حكى لي الأميرُ شجاع الدين محمدُ الشرزي مُتولي القاهرة في الأيام الكاملية سنة ثلاثين وست مئة، قال:

بينما أنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد، فضيفنا وأكرمنا، وكان الرجل أسمر شديد السُّمرة وهو شيخ كبير، وحضر له أولادٌ حِسان فيهم صفاءُ لون، فقلنا: يا فلان هؤلاء أولادُك بيضٌ وأنت شديد السّمرة؟

فقال: هؤلاء أمهم فرنجية، أخذتها في أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شاب نوبةَ حطين، فقلنا: وكيف أخذتها، فقال: لها حديثٌ عجيب، فقلت: أتحفنا به.

فقال: زرعتُ كتاناً في هذه البلدة وقلعتهُ ونفضتهُ فانصرف عليه خمسُ مئة دينار، فلم يُجب أكثر من ذلك، فأُشير علي بحمله إلى الشام، فحملته فلم يُجب أكثر من ذلك! فقيل لي: بِعهُ صبراً -أي ديناً إلى أجل- لعله يرجع لك حقُّ الطريق، فبعتُ بعضه صبراً إلى ستة أشهر، والبعض تركته عندي، واكتريتُ حانوتاً

أبيعُ فيه على مَهلٍ إلى حين انقضاء الستة أشهر.

فبينما أنا أبيع وقد مرَّت بي امرأة فرنجية زوج بعض الخيالة، ونساء الفرنج يمشون في الأسواق بلا نقاب، فأتت تشتري مني كتَّاناً، فرأيت من جمالها ما أبهرني فبعتها وسامحتها، ثم انصرفت وعادت إلي بعد أيام فبعتها وسامحتها أكثر من الكرة الأولى، فتكررت إلى عندي وعَلِمت أني أُحبها، فقلتُ للعجوز التي معها: إنني قد تعلقتُ بحبها، فكيف تتحيلين لي؟

فقالت لها ذلك، فقالت: تروحُ أرواحنا الثلاثة أنا وأنتِ وهو.

فقلتُ لها: إذا ذهبت روحي باجتماعي بها ما هو كثير، وحكتْ لي كلاماً كثيراً جرى بينهما.

واتفق الحال على أن أدفعَ لها خمسين ديناراً صُوْرِيَّة، نسبة لموضع ضربها، وهي وافية الوزن- وتجيء إليّ، قال: فوزنت خمسين ديناراً صُوريّة وسلمتها للعجوز.

فقالت: هيئ لنا موضعك ونحن الليلة عندك.

قال: فمضيتُ وجهزت ما قدرتُ عليه من مأكول ومشروب وشمعٍ وحَلْوى، وكانت داري مطلة على البحر، وكان الصيف ففرشْتُ لي على سطح الدار، وجاءت الفرنجية فأكلنا وشربنا، وجنَّ الليلُ فنمنا تحت السماء والقمر يضيء علينا، والنجومُ تنظر في البحر فقلت في نفسي: أما تستحي من الله وأنت غريب، وتحت السماء، وعلى بحر، وتعصي الله مع نصرانية، فتستوجبُ عذاب النار وعذاب الدنيا، اللهم إني أُشهِدُكَ أني قد عففت عن هذه النصرانية في هذه الليلة حياءً منك وخوفاً من عقابك، ثم نمت إلى الصبح.

فقامت في السَّحَر وهي غَضْبَى ومَضَتْ، ومضيتُ إلى حانوتي فجلست فيه، وإذا هي قد عَبَرَتْ عليَّ هي والعجوزُ وهي مغضبة، وكأنها القمر، فهلكتُ وقلتُ في نفسي: من هو أنت حتى تترك هذه الجارية؟! أنت الجُنَيْدُ أو السَّرِيُّ السقطي! ثم

لحقت العجوز وقلت: ارجعي، فقالت: وحق المسيح ما نرجعُ إليك إلا بمائة دينار.

فقلت: نعم، ومضيتُ إلى حانوتي، وزنتها، وجاءت إليَّ ثاني دفعة، فلحقتني تلك الفكرة الأولى، وعففت عنها وتركتها لله تعالى.

ثم مضت ومضيتُ إلى موضعي، ثم عبرَت عليَّ وكلمتني وكانت مستغربةً، وقالت: وحق المسيح ما بقيت تفرح بي عندك إلا بخمس مئة دينار أو تموت كمداً، فارتعت لذلك، وعزمت أني أغرمُ ثمن الكتان جميعه وأفدِي نفسي.

فبينما أنا كذلك والمنادي ينادي: معاشر المسلمين إنَّ الهدنة التي بيننا وبينكم قد انقضت، وقد أمهلنا مَنْ هنا من المسلمين إلى جمعة، ليقضوا أمورَهم وينصرفوا إلى بلادهم، فانقطعت عني، وأخذت أنا في تحصيل ثمن الكتان الذي لي والمصالحة على ما بقي منه.

وأخذت معي بضاعة حسنة، وخرجت من عكا وأنا في قلبي من الفرنجية ما فيه، فوصلتُ إلى دمشق وبعتُ البضاعة التي لي بأوفى ثمن لانقطاع وصولها بسبب فراغ الهدنة، ومنَّ الله عليَّ بكسب جيّد، وأخذتُ أتّجر في الجواري عسى أن يذهب ما بقلبي من الفرنجية، ولازمت التجارة فيهن.

فمضى عليَّ ثلاثُ سنين، وجَرى للسلطان الملك الناصر ما جَرى: وقعةُ حطين وأخذه جميع الملوك، وفتحهُ بلاد الساحل بإذن الله تعالى، فطُلِبَ مني جارية للملك الناصر، وكان عندي جاريةٌ حسنة، فاشتريتُ له بمائة دينار فأوصلوا لي تسعين ديناراً، وبقيت عشرة دنانير فلم يجدوها في الخزنة ذلك اليوم، لأنه أنفق الأموال جميعها.

فشاوروه على ذلك، فقال: امضوا به إلى الخزانة التي فيها السَّبي من نساءالفرنج، فخيروه في واحدة منهن يأخذها بالعشرة دنانير التي له، فأتيت الخزانة فنظرت إليها فعرفتُ الجارية الفرنجية غريمتي، فقلتُ: أعطوني هاتيك، فأخذتُها ومضيت بها إلى خيمتي، وقلت لها: أتعرفيني؟ قالت: لا. فقلت: أنا صاحبُك التاجر

في المكان الذي جرى له معك ما جرى، وأخذت مني الذهب، وقلتِ: ما بَقِيتَ تبصرني إلا بخمس مئة دينار وقد أخذتك مِلكاً بعشرة دنانير.

فقالت: مُدَّ يَدَكَ: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، فأسلمت وحسن إسلامُها.

فقلتُ: واللهِ لا وصلتُ إليها إلا بأمر القاضي، فرُحتُ إلى ابن شدَّاد وحكيتُ له ما جَرى، فعجب وعقد لي عليها، وباتت تلك الليلة فحملت، ثم دخل العسكر فأتينا إلى دمشق، فما كان إلا شهور قلائل، وأتى رسولُ الملك يطلبُ الأسارى والسبايا باتفاقٍ وقع بين الملوك، فرُدَّ من كان أسيراً من الرجال والنساء، ولم يبقَ إلا امرأة الفارس التي عندي.

فسألوا عنها وألحَّوا في السؤال والكشف، فوُشيَ بها أنها عندي، فطُلبَتْ مني، وحضرتُ وأنا في شِدَّةٍ وقد تغير لوني.

فقالت: ما بدا لك؟ وما الذي أصابك؟

قلت: جاء رسول الملك وأخذوا الأسارى جميعهم وطلبُوني، فقالت: لا بأس عليك أحضرني إليهم وأنا أعرفُ الذي أقول لهم.

قال: فأخذتُها وأحضرتها قُدَّام السلطان الملك الناصر والرسول جالسٌ عند يمينه، فقلت: هذه المرأة التي عندي.

فقال لها الملكُ والرسولُ: تَرُوحين إلى بلادِكِ أم إلى زوجك؟ فقد فُكَّ أسرك أنت وغيرِكِ.

فقالت للسلطان: أنا قد أسلمتُ وحَبِلتُ، وها بطني كما ترونه، وما بَقِيتْ الفرنج تنتفعُ بي.

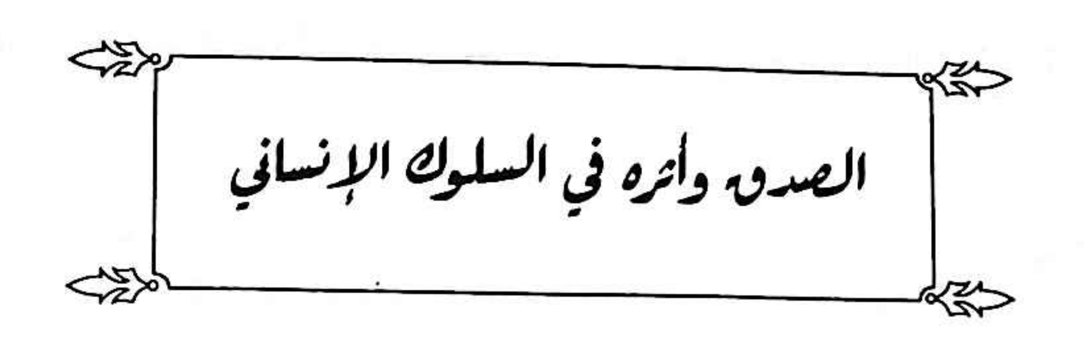
فقال لها الرسول يُخَيِّرُها: أيُّما أحبُّ إليك هذا المسلم أم زوجُكِ الفارس فلان؟

فقالت له كما قالت للسلطان، فقال الرسول لمن معه من الفرنج: اسمعوا كلامها.

ثم قال لي الرسول: خذ امرأتك وامض، فولَّيتُ بها، وقد أرسل إليَّ عاجلاً وقال: إنَّ أُمها أرسلت لها وديعة، وقالت: إن ابنتي أسيرة، وهي عُرْيانة شعِثة، وأشتهي أن ترسل لها هذا الجمدان -يعني الصندوق- وتُسلمَهُ لها.

قال: فتسلمت الجمدان ومضينا إلى الدار، فَفَتحتُهُ فوجدت قماشها بعينه، وقد صَرَّته لها أمها، وَوَجَدتْ الصُرَّتين الذهب الخمسين ديناراً والمائة دينار كما هما، بربطتي لم يتغيرا، وهؤلاء الأولادُ منها، وهي تعيش وهي التي عملت هذا الطعام). (مطالع البدور في منازل السرور للأديب علاء الدين علي بن عبد الله الغزولي: ١/ ٢٠٧) عن رسالة المسترشدين: ص٨٧-٩١ .





عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا). أخرجه البخاري برقم: ٦٠٩٤، ومسلم برقم: ٢٦٠٦، والترمذي برقم: ١٩٧١، وأبو داود برقم: ٤٩٨٩، وابن ماجة برقم: ٤٦ .

خير خصال الرجال الصدق:

جاء في ترجمة الإمام الفقيه البارع القاضي إياس بن معاوية بن قرة المزني البصري - رحمه الله تعالى - ما نصه:

عن الأصمعي - رحمه الله تعالى -: قال إياس بن معاوية - رحمه الله تعالى :

(امتحنت خصال الرجال، فوجدت أشرفها صدق اللسان، ومن عدم فضيلة الصدق، فقد فجع بأكرم أخلاقه) تهذيب الكمال: ٣/ ٤١٣ .

لو وضع الصدق على جرح لبرا:

جاء في ترجمة الإمام حقاً وشيخ الإسلام صدقاً، أحد الأئمة الأعلام، إمام أهل السنة، الحافظ القدوة أحمد بن حنبل الشيباني-رحمه الله تعالى- ما نصه:

عن تميم الرازي: قال: سمعت أبا زرعة الرازي - رحمه الله تعالى -: يقول:

(قلت لأحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى -: كيف تخلصت من سيف المعتصم وسوط الواثق ؟

فقال: لو وضعوا الصدق على جرح لبرأ) مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي: ص٣٥٠.

للصدق أثر في استجابة الدعاء:

جاء في ترجمة الإمام الرباني العابد القدوة بسر بن سعيد المدني الحضرمي - رحمه الله تعالى- ما نصه:

(عن الحجاج بن صفوان بن أبي يزيد: وشى رجل ببسر بن سعيد - رحمه الله تعالى -: إلى الوليد بن عبد الملك - رحمه الله تعالى -: أنه يطعن على الأمراء، ويعيب بني مروان، فأرسل إليه والرجل عنده.

قال: فجيء به والرجل ترعد فرائصه، فأدخل عليه، فسأله عن ذلك، فأنكره، وقال: ما فعلت.

قال: فالتفت إلى الرجل فقال: يا بسر هذا يشهد عليك، فنظر إليه بسر وقال: هكذا ؟ فقال: نعم.

فنكس رأسه، وجعل ينكث في الأرض، ثم رفع رأسه فقال: اللهم قد شهد بما قد علمت أني لم أقله، فإن كنت صادقاً، فأرني به آية. قال: فانكب الرجل على وجهه، فلم يزل يضطرب حتى مات) تهذيب الكمال: ٤/ ٧٤-٧٥.

الصدق أحيانا معجزة:

عن الأصمعي - رحمه الله تعالى -: قال:

جاؤوا زياداً بلص وعنده جماعة فيهم الأحنف، فانتهروه وقالوا:

اصدق الأمير.

فقال الأحنف - رحمه الله تعالى -:

إن الصدق أحياناً معجزة.

فأعجب ذلك زياداً- رحمه الله تعالى -: وقال: جزاك الله خيراً). عيون الأخبار لابن قتيبة: ١/ ١٤١ .

اصدق والق من شئت:

جاء في ترجمة علي بن هلال ابن البواب البغدادي أبي الحسن - رحمه الله تعالى - ما نصه: (قال أبو علي بن البناء: حكى لي أبو طاهر بن الغباري أن الحسن بن البواب أخبره:

(أن ابن سهلان استدعاه، فأبى، وتكرر ذلك، قال: فمضيت إلى أبي الحسن ابن القزويني - رحمه الله تعالى -:، وقلت: ما ينطقه الله به أفعله.

فلما دخلت، قال: يا أبا الحسن: اصدق والق من شئت.

فعدت، فإذا على بابي رسل الوزير، فمضيت معهم، فلما دخلت، قال: ما أخرك عنا ؟.

فاعتذرت، ثم قال: رأيت مناماً. فقلت: مذهبي تعبير المنام من القرآن ؟ فقال: رضيت.

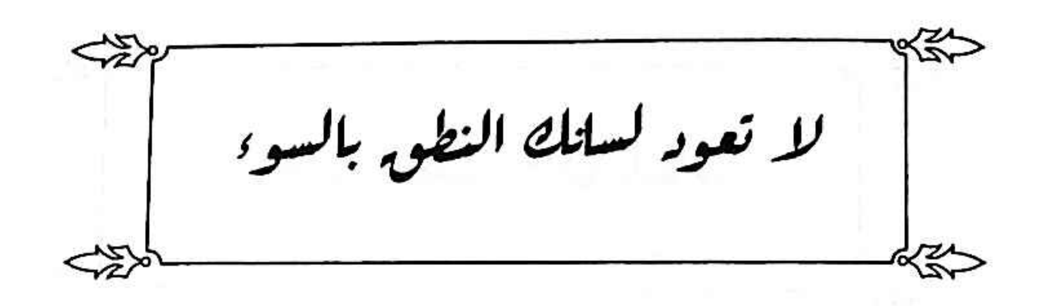
قال: رأيت كأن الشمس والقمر قد اجتمعا وسقطا في حجري.

قال: وعنده فرح بذلك: كيف يجتمع له الملك والوزارة؟

قلت: قال الله تعالى: ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ [القيامة: ٩-١١] وكررت عليه هذا ثلاثاً.

قال: فدخل إلى حجرة النساء، وذهبت، فلما كان بعد ثلاث، انحدر إلى واسط على أقبح حال، وكان قتله هناك) سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٣١٦ - ٣١٧.





لا تعود لسانك النطق بالسوء

عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ - رحمه الله تعالى -: أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام لَقِيَ خِنْزِيرًا بِالطَّرِيقِ، فَقَالَ لَهُ:

انْفُذْ بِسَلامٍ، فَقِيلَ لَهُ: تَقُولُ هَذَا لِخِنْزِيرٍ.

فَقَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام: إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُعَوِّدَ لِسَانِي الْمَنْطِقَ بِالسُّوءِ. [مالك في الموطأ برقم: ١٨٤٧].

جاء عن تاج الدين السبكي - رحمه الله تعالى -: عن والده تقي الدين السبكي - رحمه الله تعالى -:

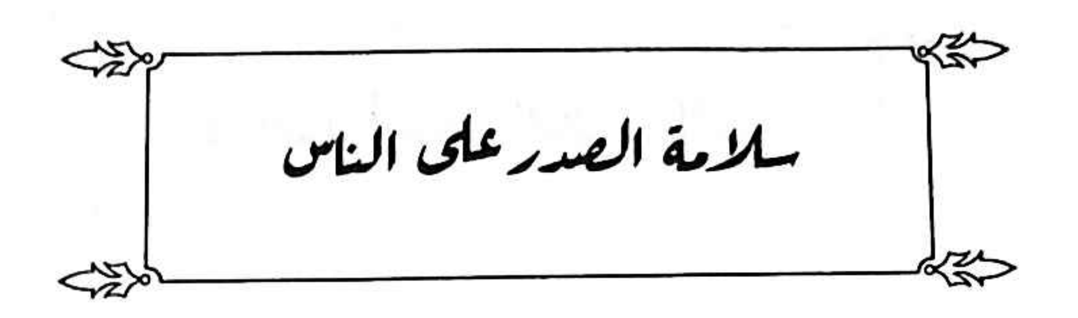
قال تاج الدين: كنت جالساً بدهليز دارنا فأقبل كلب، فقلت: إخسأ كلب بن كلب.

فزجرني الوالد من داخل البيت، فقلت: أليس هو كلب بن كلب ؟

قال: شرط الجواز عدم قصد التحقير.

فقلت هذه فائدة. [إتحاف السادة المتقين شرح الإحياء للمرتضى الزبيدي: ٥٦٦/٧]

ويعلق المرتضى- رحمه الله تعالى -: على هذا بقوله: إن ذكر الفاسق بما فيه ليحذره الناس مشروط بقصد الاحتساب وإرادة النصيحة دفعاً للاغترار به، فمن ذكر أحداً من هذا الصنف، تشفياً لغيظه، أو انتقاماً لنفسه، أو لنحو ذلك من الحظوظ النفسية فهو آثم.



سلامة الصدر على الناس

إن مراتب المحبة والأخوة كثيرة، أعلاها درجة الإيثار والذي فاز بهذه الدرجة وبجدارة هم الأنصار رضي الله عنهم، حين استقبلوا إخوانهم المهاجرين وشاركوهم أموالهم ومساكنهم ولذلك وصفهم رب العزة -عز وجل- في كتابه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحشر: ٩].

وأدنى هذه المراتب سلامة القلب والصدر من الحقد والحسد والغش وسائر الأمراض الباطنة، وسلامة القلب من كل هذا مدعاة لدخول الجنة، فإذا كان أجر أقل المراتب بهذه العظمة، فكيف بأعلى المراتب التي يستطيع المسلم بالتجرد والإخلاص أن يصل إليها. - رحمه الله تعالى -:

وهذا نموذج لسلامة الصدر من الحقد والحسد والغش نسوقه فيما يلي:

عن أنس بن مالكٍ ﷺ، قال: (كُنَّا جلوساً عند رسولِ الله ﷺ، فقال: يطلعُ عليكم الآن من هذا الفجِّ رجلٌ من أهلِ الجنَّةِ

قال: فطلعَ رجلٌ من الأنصار تنطفُ لحيتُهُ[(١)] من وضوئهِ، وقد علَّق نعله في يده الشِّمال، فسلَّم.

فلمّا كان من الغد، قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجُلُ مثل مرَّتهِ

(١) تنطف لحيته: تقطر .

الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبيُّ ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرَّجلُ على مثل حالته الأولى.

فلما قام النبي ﷺ، تبعه عبدُ الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما وقال: إني لاحيت[1] أبي، فأقسمتُ ألا أدخلَ عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تنقضي الثلاثةُ، فعلتَ، قال: نعم.

قال أنس رضي الله عنه: فكان عبد الله يحدثُ أنَّهُ باتَ معهُ ثلاث ليال، قال: فلم يرَهُ يقوم من الليلِ شيئاً غير أنَّه إذا تعارَّ[2] من الليل، وتقلب على فِراشِه، ذكر الله. وكبر حتى يقومَ لصلاةِ الفجر غير أنَّهُ لا يقولُ إلا خيراً.

قال: فلمّا مضت الثلاثُ ليالٍ، وكدت أحتقرُ عملَهُ، قلتُ:

يا عبد الله إنّه لم يكن بيني وبين والدي غضب، ولا هجرٌ، ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول ثلاث مراتٍ: (يطلعُ عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة) فطلعتَ أنت الثلاث مراتٍ.

فاردت أن آوي إليك لأنظر ما عملُك، فلم أركَ تعمل كثير عملٍ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟

فقال: ما هو إلا ما رأيت.

قال: فانصرفتُ عنه، فلما ولّيتُ، دعاني، فقال: ما هُوَ إلا ما رأيْتَ غيرَ أني لا أجدُ في نفسي على أحدٍ من المسلمين غِشّاً، ولا أحسدُهُ على خيرٍ أعطاه الله إياه.

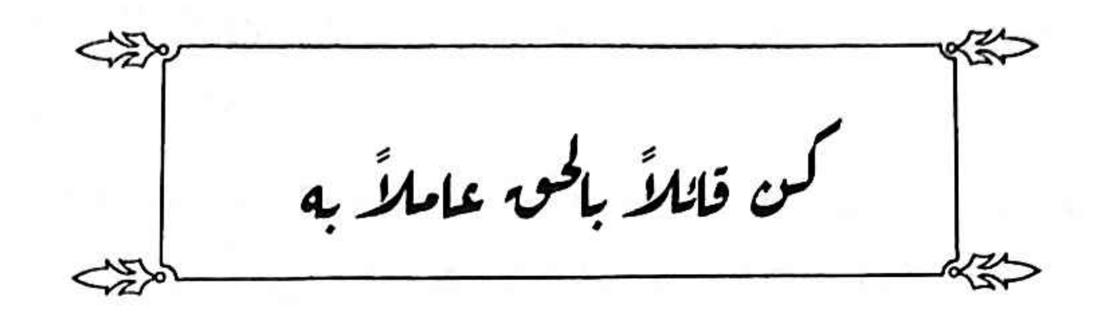
فقال عبد الله: فهذه التي بلغتْ بك، وهي الَّتي لا تُطاقُ).

اخرجه أحمد في المسند: ٣/١٦٦ وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

---

(١) لاحيت: خاصمت، وهاجرت.

(٢) تعار: استيقظ من نومه.



كن قائلاً بالحق عاملاً به

ومن أولئك القائلين بالحق، العاملين به، أحد أتباع التابعين الإمام الرباني المحدث العابد حماد بن سلمة بن دينار البصري -رحمه الله تعالى- مع الأمير محمد بن سليمان فيما أورده الإمام النووي -رحمه الله تعالى- في كتابه النفيس (بستان العارفين) حيث قال:

١ - عن مقاتل بن صالح الخُراساني، قال:

دخلت على حماد بن سلمة -رحمه الله تعالى -، فإذا ليس في البيت إلا حصيرٌ وهو جالسٌ عليه، ومصحف يقرأ فيه، وجُراب فيه علمه، ومطهرة يتوضأ فيها!

فبينا أنا عنده جالس إذْ دقَّ داقٌّ الباب، فقال:

يا صبيّة، اخرجي، فانظُري! مَنْ هذا؟

قالت: هذا رسول محمد بن سليمان.

قال: قولي له: يدخل وحده.

فدخل، فسلَّم، وناوله كتاباً.

فقال: اقرأه.

فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن سليمان إلى حمَّاد بن سلمة، أمّا بعد؛ فصبحك الله بما صبَّح به أولياءه وأهل طاعته، وقعت مسألة، فإنا نسألك عنها.

فقال: يا صبية، هَلُمّي بالدواة، ثمَّ قال: اكتب في ظهر الكتاب:

أمَّا بعد؛ وأنت صبَّحك الله بما صبَّح به أولياءه وأهل طاعته، أدركنا العلماء، وهم لا يأتون أحداً، فإن وقعت مسألة، فائتنا، فتسألنا عمّا بدا لك، وإن أتيتني، فلا تأتني إلا وحدك، ولا تأتني بخَيْلك ورَجلك، فلا أنصحكَ، ولا أنصح نفسي، والسلام.

فبينا أنا عنده جالس، إذ دقَّ داقٌّ الباب، فقال:

يا صبيَّة، اخرُجي، فانظري من هذا؟

فقالت: محمد بن سليمان.

قال: قولي له يدخل وحده.

قال: فدخل، فسلَّم، ثم جلس بين يديه، فقال:

ما لي إذا نظرت إليك! امتلأتُ رعباً.

فقال حمَّاد- رحمه الله تعالى -: سمعت ثابتاً -يعني البُنانيَّ- رحمه الله تعالى - يقول: سمعت أنس بن مالك -ﷺ- يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(العالم إذا أراد بعلمه وجه الله تعالى، هابه كلُّ شيء، وإذا أراد أن يكثّر به الكنوز هاب من كلِّ شيء).

أخرجه الديلمي في مسند الفردوس برقم: ٤٢٠١، ورمز السيوطي له بالضعف، وقال المناوي في فيض القدير حديث: ٥٦٥٧: رواه الديلمي عن أنس وفيه الحسن بن عمرو القيسي قال الذهبي: مجهول.

فقال: ما تقول - يرحمك الله- في رجل له ابنان، هو عن أحدهما أرضى، فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله؟

فقال: لا؟ ويرحمك الله، فإني سمعت ثابتاً البُنانيّ - رحمه الله تعالى - يقول:

سمعت أنس بن مالك ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله عز وجل إذا أراد أن يعذب عبداً بماله، وفقه عند موته لوصيةٍ جائرة)

قال: فحاجةٌ؟

قال: هاتِ! ما لم تكن رزيَّةً في دين.

قال: أربعين الف درهمٍ فتأخذها، فتستعين بها على ما أنت عليه.

قال: اردها على من ظلمته بها.

قال: والله ما أعطيتك إلا ما ورثته.

قال: لا حاجة لي فيها، ازوِها عنّي، زوى الله عنك أوزارك.

قال: فغيرَ هذا؟

قال: هات، ما لم يكن رزيَّةً في دين الله.

قال: تأخذها فتقسمها.

قال: فلعلّي إن عدلتُ في قسمتها أن يقول بعض من لم يرزق منها: إنه لم يعدل في قسمتها، فيأثم! ازوها عنّي زوى الله عنك أوزارك).

الحق آثر عندي من غيره:

٢- جاء في ترجمة الإمام الفقيه أبي عمرو الحارث بن مسكين بن محمد المالكي - رحمه الله تعالى - ما نصه:

قال الكندي - رحمه الله تعالى -:

(كان كلما حضر قال له المأمون: يا ساعي، يرددها عليه.

فقال له: لست بساعٍ، ولكني أحضرت، فسمعت وأطعت حين دعيت، ثم

سئلت عن أمر فاستعفيت، فلم أعف ثلاثاً، فلما رأيت أنه لابد لي من الكلام، كان الحق أثر عندي من غيره.

فقال المأمون - رحمه الله تعالى -: هذا رجل أراد أن يرفع له علم ببلده، خذه إليك.

ثم حمله إلى العراق، وخرجت إليه امرأته، وحمل ابنه إبراهيم إلى الثغور). سير اعلام النبلاء: ١٢/٥٦-٥٧، ترتيب المدارك: ٢/٥٧٦.

يا ظالم قتلت الإمام بن الإمام:

٣- جاء في ترجمة الحافظ المجود الشهيد يحيى بن محمد بن يحيى أبي زكريا الذهلي المعروف بحيكان - رحمه الله تعالى - ما نصه:

وسمعت محمد بن صالح بن هانئ يقول:

(لما قُتل حيكان ترك أبو عمرو المستملي اللباس القطني - رحمه الله تعالى -، وكان يلبس في الشتاء فرواً بلا قميص، وفي الصيف مسحاً، وكان مجلسه ومبيته في مسجد الأدميين على رأس سكة الحسن بن موسى بنيسابور، إذ سمع الناس يقولون: قد أقبل أحمد الخجستاني.

فخرج المستملي وعليه الفرو، فتقدم فأخذ عنان أحمد، ثم قال:

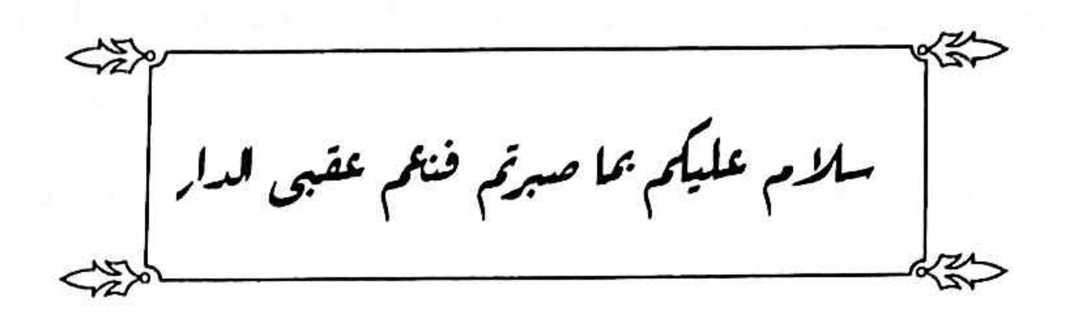
يا ظالم قتلتَ الإمام بن الإمام، العالم بن العالم.

فارتعد الخجستاني، ونفرت دابته، فتقدم الرجالة لضربه، فصاح الخجستاني:

دعوه، دعوه.

فرجع فدخل المسجد). سير أعلام النبلاء: ١٢/٢٨٨.





الصبر فضيلة عظيمة، لا يؤتاها إلا ذو حظ عظيم، فهو مقام من مقامات الدين العالية، ومنزل من منازل عباد الله المهتدين، وخصلة من خصال أهل العزم، وقد وعد الله سبحانه بتوفية أجر الصابرين من عنده بغير حساب، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[الزمر: ١٠].

وتاريخنا الإسلامي مليء بكثير من النماذج والأمثلة التي توضح حال من نزل بهم البلاء فصبروا على ما أصابهم، وضربوا أروع الأمثلة في هذا الباب، ومن تلك النماذج:

إذا استأثر الله بشيء فاله عنه:

١ - (أن عمر - يعني ابن عبد العزيز رحمه الله تعالى - رأى رجلاً يشير بشماله، فقال: يا هذا إذا تكلمت فلا تشر بشمالك، أشر بيمينك.

فقال الرجل: ما رأيت كاليوم، إن رجلاً دفن أعز الناس إليه - وهو ابنه عبد الملك - ثم إنه يهمه يميني من شمالي.

فقال عمر: إذا استأثر الله بشيء فاله عنه- أي اتركه وأعرض عنه ولا تتعرض له.

فقال له الرجل: جزاك الله عن الإسلام خيراً.

فقال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى-: لا، بل جزى الله الإسلام عني خيراً). [حلية الأولياء: ٥/ ٣٢٦، الزهد للإمام أحمد: ص٣٠٠-٣٠١] .

فالخليفة عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى- لم يشغله حزنه الذي ملأ قلبه - إذ دفن أعز الناس إليه ولده وفلذة كبده - أن يعلم الرجل ما أخطأ فيه، فما سمح لنفسه أن يسكت على مخالفة تقع من أحد أفراد الرعية، وهي الإشارة باليد اليسرى، فأرشد الرجل وهو مغمور في ذلك الحزن العميق، إلى سنة الإسلام الإشارة باليد اليمنى.

ولما مدحه الرجل وأشار إلى فضله على الإسلام، رد عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى- على ذلك، ونبهه إلى أن الفضل للإسلام وحده، إذ هو الذي علمنا الآداب والأخلاق وهو الذي يصنع في نفوس أبنائه الأعاجيب من الأعمال.

لئن اخذت، لقد ابقيت:

وإليكم أيها الأحبة هذا النموذج الرائع في الصبر:

٢- عن عمرو بن عبد الغفار - رحمه الله تعالى-، حدثنا هشام - رحمه الله تعالى-:

أن أباه - يعني عروة بن الزبير - رحمه الله تعالى- وقعت في رجله الآكلة، فقيل: ألا ندعو لك طبيباً ؟.

قال: إن شئتم، فقالوا: نسقيك شرابا يزول فيه عقلك ؟. فقال: امض لشأنك، ما كنت أظن أن خلقا يشرب ما يزيل عقله حتى لا يعرف ربه.

فوضع المنشار على ركبته اليسرى، فما سمعنا له حِسّاً، فلما قطعها جعل يقول:

لئن أخذت، لقد أبقيت، ولئن ابتليت، لقد عافيت.

وما ترك جزءه بالقرآن تلك الليلة).

وجاءت القصة مطولة:

عن يعقوب الدورقي، حدثنا عامر بن صالح، عن هشام بن عروة:

"أن أباه خرج إلى الوليد بن عبد الملك - رحمه الله تعالى-، حتى إذا كان بوادي القرى، وجد في رجله شيئاً، فظهرت به قرحة، ثم ترقّى به الوجع، وقدم على الوليد وهو في محمل.

فقال: يا أبا عبد الله اقطعها، قال: دونك.

فدعا له الطبيب، وقال: اشرب المرقد، فلم يفعل، فقطعها من نصف الساق، فما زاد أن يقول: حس، حس.

فقال الوليد: ما رأيت شيخاً قط أصبر من هذا.

وأصيب عروة بابنه محمد في ذلك السفر، ركضته بغلة في اصطبل، فلم يسمع منه في ذلك كلمة.

فلما كان بوادي القرى قال: (لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) [الكهف: ٦٢].

اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت واحداً وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة، فأخذت طرفاً، وأبقيت ثلاثة.

ولئن ابتليت، لقد عافيت، ولئن أخذت، لقد أبقيت).

[سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٣٠، وتاريخ ابن عساكر: ١١/ ٢٨٦، والمعرفة والتاريخ: ١/ ٥٥٣].

اهذا فهم أم علم أم إلهام:

٣-... ثنا الأوزاعي - رحمه الله تعالى-، عن عبد الله بن محمد - رحمه الله تعالى، قال:

خرجت إلى ساحل البحر مرابطاً، وكان رباطنا يومئذٍ عريش مصر، قال: فلما

انتهيت إلى الساحل فإذا أنا بِبُطيحة، وفي البُطيحة خيمة فيها رجل قد ذهبت يداه ورجلاه، وثقل سمعه وبصره، وماله جارحة تنفعه إلا لسانه وهو يقول:

اللهم أوزعني أن أحمدك حمداً أُكافىءُ بهِ شكرَ نعمتكَ التي أنعمتَ بها عليَّ، وفضلتني على كثيرٍ ممن خلقتَ تفضيلاً.

قال الأوزاعي - رحمه الله تعالى-: قالَ عبد الله: قلتُ: والله لآتينَّ هذا الرجل، ولأسألنه أنى له هذا الكلام، فهم أم علم أم إلهام ألهمه؟

فأتيتُ الرجل فسلمتُ عليه فقلت: سمعتكَ وأنت تقول: اللهم أوزعني أن أحمدكَ حمداً أكافىءُ به شُكرَ نعمتك التي أنعمتَ بها عليَّ، وفضلتني على كثيرٍ ممن خلقتَ تفضيلاً، فأي نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها، وأي فضيلة تفضل بها عليك تشكره عليها؟

قال: وما ترى ما صنع ربي! والله لو أرسلَ السماء عليَّ ناراً فأحرقتني، وأمر الجبال فدمّرتني، وأمر البحارَ فغرّقتني، وأمر الأرض فبلعتني، ما ازددتُ لربي إلا شكراً لما أنعمَ عليَّ من لساني هذا!

ولكن يا عبد الله إذا أتيتني، لي إليك حاجة، قد تراني على أي حالٍ أنا، أنا لستُ أقدر لنفسي على ضر ولا نفع، ولقد كان معي بُنيّ لي يتعاهدني في وقت صلاتي فيوضيني، وإذا جعتُ أطعمني، وإذا عطشتُ سقاني، ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام، فتحسسه لي يرحمك الله.

فقلت: والله ما مشى خلقٌ في حاجةِ خلقٍ كان أعظم عند الله أجراً ممن يمشي في حاجة مثلك؟

فمضيتُ في طلبِ الغلام، فما مضيتُ غير بعيد حتى صرتُ بين كثبان من الرمل، فإذا أنا بالغلام قد افترسهُ سبعٌ وأكل لحمه، فاسترجعتُ وقلت:

أنى لي وجه رفيق آتي به الرجل، فبينما أنا مقبلٌ نحوه، إذ خطر على قلبي ذكر

أيوب النبي عليه السلام، فلما أتيتهُ سلمتُ عليه فرد عليَّ السلام.

فقال: ألست بصاحبي؟

قلت: بلى.

قال: ما فعلتَ في حاجتي؟

فقلتُ: أنتَ أكرم على الله أم أيوب النبي؟

قال: بل أيوب النبي.

قلت: هل علمت ما صنعَ بهِ ربه، أليس قد ابتلاه بماله وولده وآله؟

قال: بلى.

قلتُ: فكيف وجده؟

قال: وجده صابراً شاكراً حامداً.

قلت: لم يرضَ منه ذلك حتى أوحشَ مِن أقربائه وأحبابه؟

قال: نعم.

قلت: فكيف وجدهُ ربه؟

قال: وجدهُ صابراً شاكراً حامداً.

قلت: فلم يرضَ منه بذلك حتى صيرهُ عرضاً لمارِّ الطريق هل علمت؟

قال: نعم.

قلت: فكيف وجدهُ ربه؟

قال: صابراً شاكراً حامداً، أوجز رحمكَ الله!

قلت: إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كثبان الرمل، وقد افترسه

سبع فأكل لحمه، فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر.

فقال المبتلى: الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقاً يعصيه فيعذبه بالنار، ثم استرجع وشهق شهقة فمات، فقلت:

إنا لله وإنا إليه راجعون، عظمت مصيبتي، رجل مثلُ هذا إن تركتهُ أكلته السباع، وإن قعدتُ لم أقدر على ضر ولا نفع.

فسجيته بشملة كانت عليه وقعدت عند رأسه باكياً، فبينما أنا قاعد إذ تهجم عليَّ أربعة رجال، فقالوا: يا عبد الله! ما حالك وما قصتك؟

فقصصت عليهم قصتي وقصته، فقالوا لي: اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه.

فكشفت عن وجهه، فانكب القوم عليه يقبلون عينيه مرة، ويديه أخرى، ويقولون: بأبي عين طال ما غضت عن محارم الله، وبأبي جسم طال ما كنت ساجداً والناس نيام.

فقلت: من هذا يرحمكم الله؟

فقالوا: هذا أبو قلابة الجرمي[1] - رحمه الله تعالى- صاحبُ ابن عباس- رضي الله عنه-، لقد كان شديد الحب لله، وللنبي ﷺ.

فغسلناه، وكفناه بأثوابٍ كانت معنا، وصلينا عليه ودفناه.

فانصرف القوم وانصرفتُ إلي رباطي، فلما أن جنَّ عليَّ الليل، وضعتُ رأسي فرأيته فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة وعليه حلتان من حلل الجنة وهو يتلو الوحي: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[الرعد: ٤٢].

---

(١) أبو قلابه الجرمي: هو عبدالله بن زيد من عباد أهل البصرة وزهادهم، وأحد التابعين الأجلاء .

فقلت: ألستَ بصاحبي؟ قال: بلى.

قلت: أنى لك هذا.

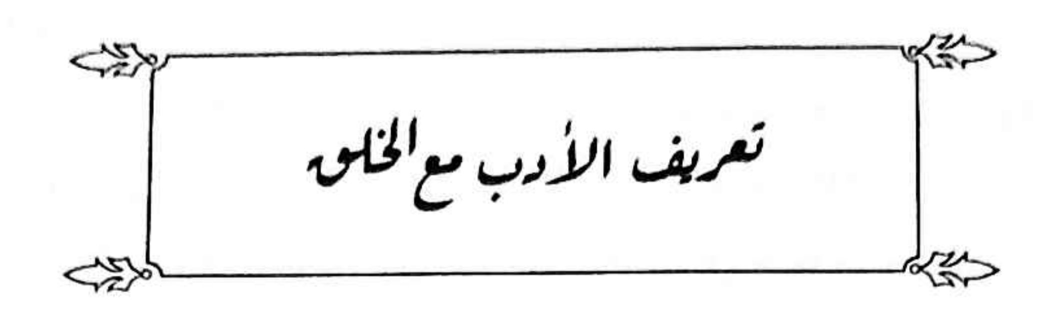
قال: إن لله درجات لا تنال إلا بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، مع خشية الله -عز وجل- في السر والعلانية). كتاب الثقات لابن حبان البستي: ٥/ ٣-٥، وكتاب الصبر لابن أبي الدنيا: ص٦٨-٧١ .





الفصل الرابع

صور من أدب السلوك مع الآخرين



تعريف الأدب مع الخلق

تعريف الأدب مع الخلق: هو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم، فلكل مرتبة أدب، والمراتب فيها أدب خاص: فمع الوالدين أدب خاص، وللأب منهما أدب هو أخص به، ومع العالم أدب آخر، ومع السلطان أدب يليق به، وله مع الأقران أدب يليق بهم، ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته، وهكذا.

خير الأمور أوسطها:

و المطلوب في الأدب التوسط في التعامل، فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها، ولا يتجاوز بها ما جعلت حدوداً له، فكلاهما عدوان والله لا يحب المعتدين، والعدوان هو سوء الأدب.

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

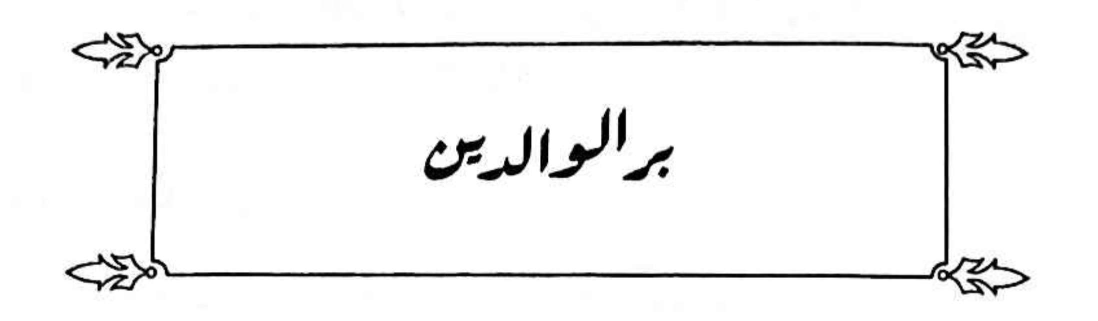
ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم، ولا يستغرق فيها بحيث يشتغل بها عن حقوق الله، أو عن تكميلها، أو عن مصلحة دينه وقلبه، وأن لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية، فإن الطرفين من العدوان الضار، وعلى هذا الحد، فحقيقة الأدب هي العدل، والله أعلم.

وسأورد في هذا الفصل صوراً ونماذج رائعة لأدبيات التعامل مع الآخرين، انتقيتها من حياة أهل الخير ممن سبقونا، لعلها تكون مشاعل هداية لنا إلى الخير، فنتشبه بهم، لنحشر معهم، وفي زمرتهم.

آداب متنوعة:

ولكل حال أدب: فللأكل آداب، وللشرب آداب، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللبول آداب، وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب، ومما ننصح بقراءته من الكتب في هذا الباب كتاب (فنون الذوقيات والإتيكيت الإسلامي) لعبدالله بن حمود البور سعيدي من إصدارات مركز التفكير الإبداعي، طباعة دار ابن حزم ' فإنه من الكتب الماتعة المفيدة.





بر الوالدين

ما أحوجنا في عصرنا هذا أن نذكر ببر الوالدين، في وقت كثر فيه العقوق وتضاعفت حالاته، وأصبح الكثير من الناس لا يصلون آباءهم وأمهاتهم إلا في مناسبات قليلة، ونسوا أو تناسوا الأحاديث الكثيرة الصحيحة، والآيات القرآنية الصريحة، الحاثة على بر الوالدين والقيام بحقوقهما، ولعلي من خلال ذكري لهذه النماذج من بر الأبناء بآبائهم وأمهاتهم، أقدم النموذج القدوة لهؤلاء الغافلين، فيسارعوا إلى بر آبائهم وأمهاتهم، فإليكم أيها الأحبة هذه النماذج الرائعة في بر الوالدين: .ﷺ

لا ياكل مع امه خشية عقوقها:

١- (كان زين العابدين - يعني علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: كثير البر بأمّه، حتى قيل له:

إنك أبرُّ الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها في صفحة!

فقال: (أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عَقَقْتُها).

وفيات الأعيان: ٣/ ٢٦٨ .

كمال الأدب مع الوالد:

٢- (قيل لعمر بن ذرّ - رحمه الله تعالى -أحد الزهاد العباد-:

كيف كان برُّ ابنك بك؟

قال: ما مشيتُ نهاراً قط إلا مشى خلفي، ولا ليلاً إلا مشى أمامي، ولا رقِيَ سطحاً وأنا تحته). عيون الأخبار: ٣/ ٩٧ .

هل رايت مثل هذا البر:

٣- قال المأمون - الخليفة العباسي- رحمه الله تعالى -:

(لم أر أحد أبرَّ من الفضل بن يحيى بأبيه، بلغَ من برّه به أنَّ يحيى كان لا يتوضأ إلا بماءٍ مسخَّن، وهما في السجن، فمنعهما السَّجَّان من إدخال الحطب في ليلة باردةٍ، فقام الفضلُ حين أخذ يحيى مضجعه إلى قُمقُم كان يُسخَّن فيه الماء، فملأه ثم أدناه من نار المصباح، فلم يزل قائماً وهو في يديه حتى أصبح). عيون الأخبار لابن قتيبة: ٣/ ٩٨، وفيات الأعيان: ٤/ ٣٦.

اقرا بعيني قلبك:

٤- قالت حفصة بنت سيرين - رحمها الله تعالى-:

(بلغ من بر الهذيل ابني بي، أنه: كان يكسر القصب في الصيف فيوقد لي في الشتاء، قال: لئلا يكون له دخان.

وكان يحلب ناقته بالغداة، فيأتيني به فيقول: اشربي يا أم الهذيل فإن أطيب اللبن ما بات في الضرع.

قالت: فمات فرزق الله علي من الصبر ما شاء أن يرزق، وكنت أجد مع ذلك حرارة في صدري لا تكاد تسكن.

قالت: فأتيت ليلة من الليالي على هذه الآية: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٦ ﴾ [النحل: ٩٦]، فذهب عني ما كنت أجد). البر والصلة لابن الجوزي برقم: ٩٣.

٥- جاء في ترجمة الإمام المحدث طلق بن حبيب العنزي - رحمه الله تعالى-:

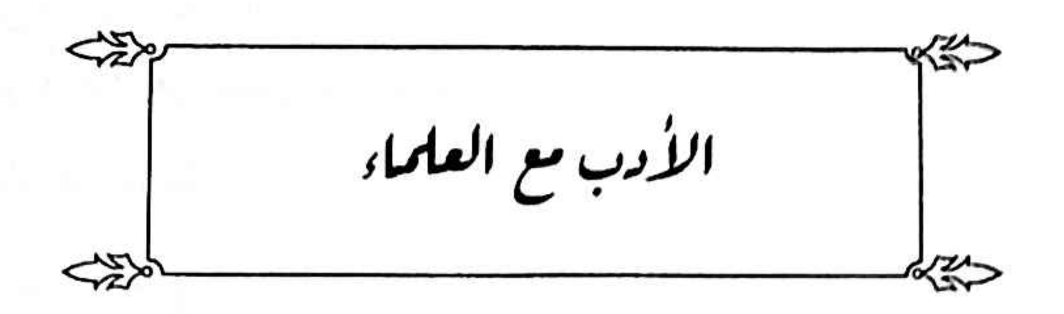
عن مالك: بلغني ان طلق بن حبيب كان من العباد، وكان برا بامه، وأنه دخل عليها يوماً، فإذا هي تبكي من امرأته.

فقال لها: ما يبكيك ؟

قالت له: يا بني أنا أظلم منها، وأنا بدأتها وظلمتها.

فقال لها: صدقت، ولكن لا تطيب نفسي أن أحتبس امرأة بكيت منها) تهذيب الكمال: ١٣/ ٤٥٣.





للعلماء في الإسلام مكانة سامقة، ومنزلة عالية، ولما لهم من مكانة فقد جعل تكريمهم وتوقيرهم فرضاً لازماً على كل مسلم، تكريماً للعلم الذي يحملونه، والرسالة التي يؤدونها.

مكانة العلماء في القرآن والسنة:

لقد جاءت آيات وأحاديث كثيرة تشير إلى هذه المنزلة، سأقتصر على بعضها:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[آل عمران: ١٨].

وجاء من حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

(مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ.

وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ.

وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ.

وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا

الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ).

أخرجه أبو داود برقم: ٣٦٤١، ٣٦٤٢، والترمذي برقم: ٢٦٨٢، وابن ماجة برقم: ٢٢٣، وابن حبان برقم: ٨٨ والحديث حسن.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في تعليقه على هذا الحديث: (قوله: إن العلماء ورثة الأنبياء) هذا من أعظم المناقب لأهل العلم، فإن الأنبياء خير خلق الله، فورثتهم خير الخلق بعدهم، ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته، إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء، كانوا أحق الناس بميراثهم وفي هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم، فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث، وهذا- كما أنه ثابت في ميراث الدينار والدرهم- فكذلك هو في ميراث النبوة، والله يختص برحمته من يشاء) مفتاح دار السعادة: ١/ ٦٦.

ويقول سفيان بن عيينة - رحمه الله تعالى -: (أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده، وهم الرسل والعلماء) مفتاح دار السعادة: ١/ ٦٦.

الإمام علي يؤصل لمنهج الأدب مع العلماء:

كان الإمام علي كرم الله وجهه من أوائل من أصلوا لمنهج الأدب مع العلماء حيث قال: (إن من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة، وتخصه دونهم بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرن عنده بيدك، ولا تغمزن بعينيك، ولا تقولن: قال فلان - خلافاً لقوله-، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تسأل في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تعرض من طول صحبته، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء، وإن المؤمن العالم لأعظم أجراً من الصائم القائم الغازي في سبيل الله، وإذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء إلى يوم القيامة) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي: ١/ ١٩٩ برقم: ٣٤٧.

ابن عباس يقدم صورة عملية للأدب مع العلماء:

ومن الأمثلة الدالة على ترجمة توقير العلماء إلى أسلوب عملي:

١ - (ما ورد أن الصحابي الجليل زيد بن ثابت ﷺ صلى على جنازة، فقربت إليه بغلته ليركبها، فجاء الصحابي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فأخذ بركابه.

فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ.

فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء). إحياء علوم الدين: ١/ ٨٤ .

الإمام مسلم يزيد الأمر وضوحا:

٢- وهذا الإمام مسلم - رحمه الله تعالى- حين لقي الإمام البخاري -رحمه الله تعالى - قبله بين عينيه، وقال:

(دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله). مقدمة فتح الباري: ص٤٨٨.

وللإمام حسن البنا نصيب في التاصيل العملي:

٣- يذكر الأستاذ عباس السيسي في كتابه (الذوق سلوك الروح) أن الإمام حسن البنا - رحمه الله تعالى - دعي لحفل بمناسبة عقد زواج ابن أحد كبار علماء الأزهر، وكان من بين المدعوين فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وحين بدأ عقد القران تقدم عدد من أبناء العائلة إلى الشيخ حسن البنا ليتولى عقد الزواج، ولكنه اعتذر عن ذلك بإصرار، وقام بنفسه وقدم الإمام الأكبر ليتولى صيغة العقد) الذوق سلوك الروح: ص٤٦.

وكانت هذه اللفتة الكريمة من الشيخ حسن البنا رحمه الله درساً عملياً تربوياً في وجوب توقير العلماء وتعظيمهم.

تحذير للمتطاولين على العلماء:

في الوقت الذي حثتنا فيه تعاليم الإسلام على احترام أهل العلم، والوفاء بحقوقهم من التبجيل والتوقير، نجد - في المقابل تحذيرات وتهديدات لمن تسول لهم نفوسهم إيذاء العلماء والتطاول عليهم:

فقد جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ) أخرجه البخاري برقم: ٦٥٠١ وأحمد: ٦/٢٥٦

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -: (ورثة الأنبياء سادات أولياء الله عز وجل) مفتاح دار السعادة: ١/٦٦ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

(من آذى فقيهاً فقد آذى رسول الله ﷺ، ومن آذى رسول الله فقد آذى الله تعالى) المجموع للنووي: ١/٤٨.

و جاء في ترجمة الإمام أبي حنيفة النعمان - رحمه الله تعالى -:

(أن بعض مناظريه قال له: يا مبتدع، يا زنديق.

فقال: غفر الله لك، الله يعلم مني خلاف ذلك، وأني ما عدلت به مذ عرفته، ولا أرجو إلا عفوه، ولا أخاف إلا عقابه.

ثم بكى عند ذكر العقاب.

فقال له الرجل: اجعلني في حل مما قلت.

فقال: كل من قال فيَّ شيئاً من أهل الجهل فهو في حل، وكل من قال فيَّ شيئاً مما ليس فيَّ من أهل العلم، فهو في حرج، فإن غيبة العلماء تبقي شيئاً بعدهم) الخيرات الحسان: ص: ٤٠ .

ويقول الحافظ ابن عساكر - رحمه الله تعالى -: اعلم يا أخي - وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته- أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب - يعني بالتنقص والعيب-بلاه الله قبل موته بموت القلب) المجموع: ١/ ٤٧.

نماذج لأدب السلف مع العلماء:

ومن تلك النماذج في الأدب مع العلماء أسوق هذه النماذج للعبرة والعظة:

العلماء باقون ما بقي الدهر:

١- قال يحيى بن أكثم - رحمه الله تعالى -:

قال لي الرشيد- رحمه الله تعالى - يوما: ما أنبل المراتب ؟

قلت: يا أمير المؤمنين ما أنت فيه.

قال: فتعرف من هو خير مني.

قال: لا.

قال: لكني أعرفه، رجل يقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ.

قال: قلت: يا أمير المؤمنين: أهذا خير منك، وأنت ابن عم رسول الله ﷺ، وولي عهد المؤمنين ؟.

قال: نعم، ويلك ! هذا خير مني، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ لا يموت أبداً ونحن نموت ونفنى، والعلماء باقون ما بقي الدهر). مفتاح دار السعادة لابن القيم: ١/ ١٦٥ .

اي ادب هذا ؟

٢- جاء عن أحمد بن محمد بن الليث قال:

(جاء سهل بن عبد الله التستري - رحمه الله تعالى - إلى أبي داود السجستاني

- رحمه الله تعالى -، فقيل: يا أبا داود: هذا سهل بن عبد الله جاءك زائراً فرحب به، وأجلسه.

فقال سهل - رحمه الله تعالى -: يا أبا داود إلي إليك حاجة.

قال: وما هي ؟.

قال: حتى تقول: قد قضيتها مع الإمكان.

قال: نعم.

قال: أخرج إلي لسانك الذي تحدث به أحاديث رسول الله ﷺ حتى أقبله.

فأخرج إليه لسانه فقبله). وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ٤٠٤-٤٠٥.

لا يعرف الفضل لأهله إلا ذوو الفضل:

٣- وجاء في ترجمة الإمام الأديب النحوي إمام الكوفيين في النحو يحيى بن زياد الفراء الكوفي - رحمه الله تعالى - ما نصه:

(كان المأمون - رحمه الله تعالى - قد وكل الفراء يلقن ابنيه النحو، فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانها له، فتنازعا أيهما يقدمها، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منها فرداً، فقدماها. وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر- أي رجل يأتيه بالأخبار - فرفع إليه ذلك الخبر، فوجه إلى الفراء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال له: من أعز الناس ؟ قال: ما أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين.

قال: بلى، من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين، حتى رضي كل منهما أن يقدم له فردة.

قال: يا أمير المؤمنين، لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، أو اكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها، وقد روي عن

ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه أمسك للحسن والحسين - رضي الله عنهما - ركابيهما حين خرجا من عنده، فقال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما، وأنت أسن منهما ؟.

قال له: اسكت يا جاهل، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل.

قال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً، وألزمتك ذنباً، وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما، وبين عن جوهرهما، ولقد ثبتت لي مخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل - وإن كان كبيراً - عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلمه العلم، وقد عوضتهما بما فعلاه عشرين ألف دينار، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما). تاريخ بغداد: ١٤/ ١٥٠، وفيات الأعيان: ٢/ ٢٢٨.

لا ندع ذكر أهل الفضل بفضلهم:

٤- جاء في ترجمة الإمام العابد المحدث بسر بن سعيد المدني مولى ابن الحضرمي - رحمه الله تعالى - ما نصه:

(قال مالك: مات بسر بن سعيد - رحمه الله تعالى -، وما خلف كفناً، ومات عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وخلف ثمانين مُدْيَ ذهب.

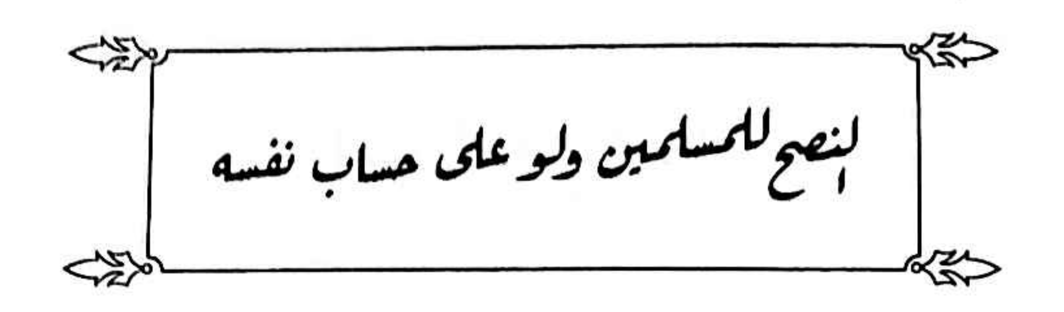
فبلغ عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - فقال:

والله لئن كان مدخلهما واحداً، لأن أعيش بعيش عبد الله بن عبد الملك أحبّ إلي.

فقال له مسيلمة بن عبد الملك - رحمهُ الله تعالى -: هذا الذبح عند أهل بيتك.

فقال: إنا والله لا ندع أن نذكر أهل الفضل بفضلهم)تهذيب الكمال: ٤/ ٧٥.





عن إبراهيم بن جرير البجلي - رحمه الله تعالى - عن أبيه قال:

(غدا أبو عبدالله " أي جرير ﷺ " إلى الكناسة ليبتاع منها دابة، وغدا مولى له فوقف في ناحية السوق، فجعلت الدواب تمر عليه فمر به فرس فأعجبه، فقال لمولاه:

انطلق فاشتر ذلك الفرس، فانطلق مولاه، فأعطى صاحبه به ثلاثمائة درهم، فأبى صاحبه أن يبيعه، فماكسه، فأبى صاحبه أن يبيعه، فقال: هل لك أن تنطلق إلى صاحب لنا ناحية السوق ؟.

قال: لا أبالي، فانطلقا إليه، فقال له مولاه: إني أعطيت هذا بفرسه ثلاثمائة درهم، فأبى، وذكر أنه خير من ذلك، قال صاحب الفرس: صدق، أصلحك الله، فترى ذلك ثمناً ؟.

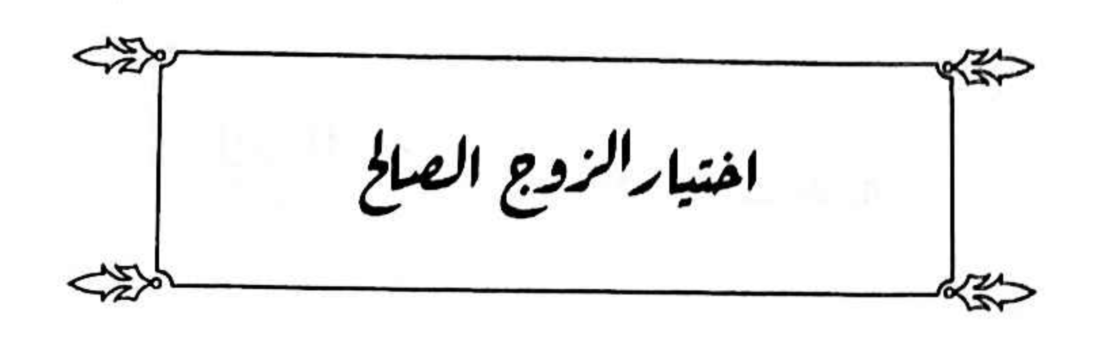
قال: لا، إن فرسك خير من ذلك، تبيعه بخمسمائة، حتى بلغ سبعمائة درهم أو ثمانمائة.

فلما أن ذهب الرجل أقبل على مولاه، فقال له:

ويحك انطلقت لتبتاع لي دابة، فأعجبتني دابة رجل، فأرسلتك تشتريها، فجئت برجل من المسلمين يقوده، وهو يقول ما ترى ما ترى ؟

وقد بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم).

أخرجه الطبراني في الكبير برقم: ٢٣٩٥، والمحلى لابن حزم: ٨/ ٤٤٠-٤٤١ بسند صحيح.



اختيار الزوج الصالح

إن حسن اختيار الزوج الصالح لبناتنا يوصلهن إلى بر الأمان والطمأنينة، ويبتعد بهن عن طريق المصاعب والمتاعب، لأن التعلق بمظاهر الغنى والمكانة الاجتماعية والجمال فقط تصل بأصحابها إلى المصاعب والمتاعب، وأما أهل العقل والحكمة فهم الذين يتعالون عن هذه المظاهر، ويتعلقون بالاستقامة على الحق والخير.

فالأب حين يختار لابنته الزوج الصالح فإن ذلك يعتبر منه براً بها، وحفظاً لمكانتها، وحماية لدينها، فاقتران البنت بصاحب الدين يعتبر ضماناً لها بالتوافق والوئام، وفي هذا دفع للفساد والفتنة عن الأرض، وهذا ما أوصى به النبي ﷺ حيث قال:

(إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض).

أخرجه الترمذي في النكاح باب ما جاء فيمن ترضون دينه برقم: ١٠٨٤، وابن ماجة برقم: ١٩٩٧، والحاكم: ٢/ ١٦٤-١٦٥ والحديث حسن لشواهده.

ومن تلك النماذج العجيبة في حسن اختيار الأب الزوج الصالح لابنته أذكر هاتين القصتين العجيبتين:

انت ما تعرف الحُلوَ من الحامِض؟

١- ما أورده الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى - في كتابه (التِّبر المسبوك في

نصيحة الملوك) عن والد عبد الله بن المبارك وقصة زواجه -رحمه الله تعالى- حيث قال:

(عن مبارك أبي عبد الله: أنّه كان يعمل في بستان لمولاه، وأقام فيه زماناً، ثمّ إنّ مولاه صاحب البستان -وكان أحد تجار همذان- جاءه يوماً، وقال له: يا مبارك أريد رُمّاناً حُلْواً.

فمضى مبارك إلى بعض الشجر، وأحضر منها رُمّاناً، فكسره مولاه، فوجده حامضاً، فحردَ عليه، وقال:

أطلب الحُلْوَ فتُحضِر لي الحامِض؟! هات حلوًا.

فمضى وقطع من شجرة أخرى، فلما كسره سيّده، وجده أيضاً حامِضاً، فاشتد حَرَده عليه، وفعل ذلك مرَّةً ثالثة، فذاقه، فوجده أيضاً حامضاً، فقال له بعد ذلك:

أنت ما تعرف الحُلوَ من الحامِض؟

فقال: لا.

فقال: وكيف ذلك.

فقال: لأنّي ما أكلت منه شيئاً حتى أعرفه.

فقال: ولِمَ لم تأكل؟

قال: لأنك ما أذنتَ لي بالأكل منه.

فعجب صاحبُ البُستانِ من ذلك، ولمّا تبيّن له صِدقُ عبده، عظم في عينه وزاد قدْرُه عنده، وكانت له بنتٌ خُطبت كثيراً، فقال له:

يا مبارك، من ترى تُزَوَّج هذه البنت؟

فقال: أهل الجاهلية كانوا يزوّجون للحسَب، واليهود للمال، والنّصارى للجمال، وهذه الأُمّة للدين.

فاعجبه عقله، وذهب فأخبر به زوجته، وقال لها:

ما أرى لهذه البنت زوجاً غير مبارك.

فتزوَّجها، وأعطاهما أبوها مالاً كثيراً، فجاءت بعبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى -، العالم، المحدث، الزاهد، المجاهد، الذي كان أكرم ثمرة زواج على أبويه في آفاق زمانه حتى قال فيه الفضيل بن عياض، - رحمه الله تعالى- ويقسم على قوله:

وربِّ هذا البيت! ما رأت عيناي مثل ابن المبارك.

وما أجمع العلماء على أحدٍ من أهل العلم كما أجمعوا عليه، رحمه الله تعالى). التبر المسبوك في نصيحة الملوك: ص٨٥.

زوج الفقير ورفض زواج الأمير:

٢- وأما القصة الثانية فهي قصة سعيد بن المسيب - رحمه الله تعالى - التابعي الجليل الذي رفض أن يصاهر الخليفة، وزوج ابنته لأحد تلامذته ممن كانوا يجالسونه ويتعلمون منه، فقد ذكر الإمام ابن خلكان في كتابه النفيس (وفيات الأعيان) هذه القصة بقوله:

(قال أبو وداعة: كنت أجالس سعيد بن المسيِّب رحمه الله تعالى -، ففقدني أياماً، فلما جئتُه قال:

أين كنت؟

قلت: تُوفّيت أهلي، فاشتغلت بها.

فقال: هلا أخبرتنا، فشهدناها؟

قال: ثم أردت أن أقوم، فقال:

هلا أحدثت امرأة غيرها؟

فقلت: يرحمك الله، ومن يزوِّجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟

فقال: إن أنا فعلت تفعل؟

قلت: نعم.

ثم حمد الله تعالى وصلّى على النبيِّ ﷺ وزوجني على درهمين أو قال: ثلاثة.

قال: فقمتُ وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي، وجعلت أتفكر ممن آخذ وأستدين، وصلّيت المغرب، وكنت صائماً، فقدَّمتُ عشايَ لأفطر، وكان خُبْزاً وزَيْتاً، وإذا بالباب يُقرع، فقلت: من هذا؟

قال: سعيد.

ففكرت في كلِّ إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيِّب، فإنّه لم يُرَ، منذ أربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد، فقُمتُ وخرجتُ، وإذا بسعيد بن المسيِّب، فظننت أنّه قد بدا له، فقلتُ:

يا أبا محمد، هلا أرسلت إليَّ فآتيك؟

قال: لا، أنت أحقُّ أن تُؤتى.

قلت: فما تأمرني؟

قال: رأيتك رجلاً عَزَباً قد تزوَّجت، فكرهتُ أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك.

فإذا هي قائمة خلفه في طوله، ثمَّ دفعها في الباب وردَّ الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثمّ صعدتُ إلى السطح، فناديت الجيران، فجاؤوني، وقالوا: ما شأنك؟

فقلت: زوَّجني سعيد بن المسيِّب اليوم ابنته، وقد جاء بها على غفلة، وها هي في الدار.

فنزلوا إليها، وبلغ أمّي، فجاءت، وقالت:

وجهي من وجهك حرام إن مسستَها قبل أن أُصلحها ثلاثة أيّام.

فأقمتُ ثلاثاً، ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحقِّ الزوج.

قال: فمكثت شهراً لا يأتيني ولا آتيه، ثم أتيتُه بعد شهر وهو في حلقته، فسلمتُ عليه، فردَّ عليَّ، ولم يكلِّمني حتى انفضَّ مَنْ في المسجد، فلمَّا لم يبق غيري؛ قال:

ما حال ذلك الإنسان؟

قلت: هو على ما يُحبُّ الصديقُ ويكره العدوُّ.

قال: إنْ رابكَ شيءٌ فالعصا.

فانصرفت إلى منزلي.

وكانت بنت سعيدٍ خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد، فأبى سعيد أن يزوجه). وفيات الأعيان: ٢/ ٣٧٧

اللهم ارزق بنتي مثل الذي رد العقد:

٣- وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي - رحمه الله تعالى -:

(حكى ابن عقيل - رحمه الله تعالى - عن نفسه قال:

حججت، فالتقطت عقد لؤلؤ في خيط أحمر، فإذا شيخ أعمى ينشده، ويبذل لملتقطه مئة دينار، فرددته عليه، فقال: خذ الدنانير، فامتنعت.

وخرجت إلى الشام، وزرت القدس، وقصدت بغداد، فأويت بحلب إلى مسجد وأنا بردان جائع، فقدموني فصليت بهم، فأطعموني.

وكان أول رمضان، فقالوا: إمامنا توفي فصل بنا هذا الشهر، ففعلت.

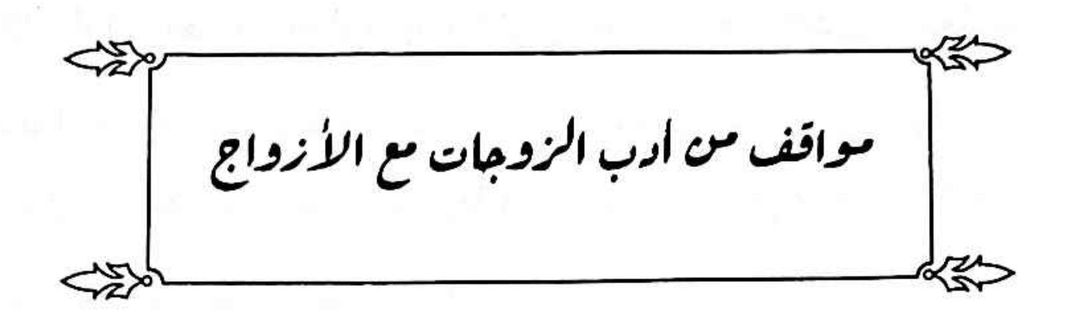
فقالوا: لإمامنا بنت، فزوجت بها، فأقمت معها سنة، وأولدتها -ولدا ذكرا- فمرضت في نفاسها، فتأملتها يوماً فإذا في عنقها العقد بعينه بخيطه الأحمر.

فقلت لها: لهذا قصة وحكيت لها.

فبكت، وقالت: أنت هو والله، لقد كان أبي يبكي، ويقول:

اللهم ارزق بنتي مثل الذي رد العقد علي، وقد استجاب الله منه، ثم ماتت، فأخذت العقد والميراث، وعدت إلى بغداد). [سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٤٤٩-٤٥٠، ومرآة الزمان: ٨/ ٥٢-٥٣].





مواقف من أدب الزوجات مع الأزواج

إن من وفقه الله تعالى لاختيار الزوجة الصالحة فقد فاز بخير كثير في الدنيا والآخرة، ولهذا جاء الحث من النبي ﷺ على حسن اختيار الزوجة التي تكون عونا لزوجها على أمور دينه ودنياه، وهي التي تحسن الأدب مع زوجها وتعرف له حقه، وهذا بعض ما جاء في سنة النبي ﷺ، وكلام أهل الحكمة في ذلك:

خير متاع الدنيا الزوجة الصالحة:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ).

أخرجه مسلم برقم: ١٤٦٧، وابن ماجة برقم: ١٨٥٥ وأحمد: ٢/ ١٦٨.

المراة الصالحة من سعادة الإنسان:

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلاثَةٌ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلاثَةٌ، مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الصَّالِحُ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ: الْمَرْأَةُ السُّوءُ، وَالْمَسْكَنُ السُّوءُ، وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ).

أخرجه أحمد: ١/ ١٦٨، وابن حبان برقم: ٤٠٢١، والحاكم: ٢/ ١٤٤ وصححه ووافقه الذهبي وهو حسن.

الظفر بذات الدين من السعادة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

(تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ).

البخاري برقم: ٥٠٩٠ ومسلم: ١٤٦٦، وأبو داود برقم: ٢٠٤٧ .

تحذير النبي من عدم ادب المراة مع زوجها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: عن رسول الله ﷺ قال:

(لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه).

النسائي في عشرة النساء برقم: ٢٤٩، والحاكم: ٢/ ١٩٠ وصححه ووافقه الذهبي، والحديث حسن.

الخطاب بن المعلى يبين اصناف النساء:

جاء في وصية الخطاب بن المعلى المخزومي - رحمه الله تعالى- لابنه:

(يا بني، إن زوجة الرجل سكنه، ولا عيش له مع خلافها، فإذا هممت بنكاح امرأة فسل عن أهلها، فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة.

واعلم أن النساء أشد اختلافاً من أصابع الكف، فتوق منهن كل ذات بذا مجبولة على الأذى ...) إلى أن قال: (.... ومنهن العطوف الودود، المباركة الولود، المأمونة على غيبها، المحبوبة في جيرانها، المحمودة في سرها وإعلانها، الكريمة التبعل - يعني في أداء حقوق زوجها-الكثيرة التفضل، الخافضة صوتاً، النظيفة بيتاً، خادمها مسمن، وابنها مزين، وخيرها دائم، وزوجها ناعم، مموقة مألوفة، وبالعفاف والخيرات موصوفة). روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: لابن حبان: ص٢٠٢-٢٠٣ .

أفضل النساء:

سئل أعرابي عن النساء، وكان ذا تجربة وعلم بهن، فقال:

(أفضل النساء: أطولهن إذا قامت، وأعظمهن إذا قعدت، وأصدقهن إذا قالت، التي إذا غضبت حلمت، وإذا ضحكت تبسمت، وإذا صنعت شيئا جودت، التي تطيع زوجها، وتلزم بيتها، العزيزة في قومها، الذليلة في نفسها، الودود الولود، وكل أمرها محمود) العقد الفريد لابن عبد ربه: ٦/ ١٠٧.

كلا والله لا يخزيك الله أبدا:

ومن أعظم المواقف في أدب الزوجات مع أزواجهن موقف السيدة خديجة رضي الله عنها - إحدى كوامل النساء - حين أوحي إلى النبي ﷺ فوقع الخوف في قلبه وخشي على نفسه، فما كان منها إلا أن ثبتت قلبه، وذكرت خصال الخير التي تعرفها عنه، والتي تؤهله ليكون نبي هذه الأمة، فاطمأن قلبه، وذلك من عظيم أدبها، وكمال عقلها، وتمام أخلاقها رضي الله عنها، وسأورد هذا الحديث بطوله لما فيه من الفوائد العظيمة:

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رضي الله عنها - أَنَّهَا قَالَتْ:

(أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ - قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ.

فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ !، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي

الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) ﴾[العلق : ١-٣] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي.

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلا، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ، حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنْ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى ؟.

فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ).

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيَّ - رضي الله عنهما- قَالَ: وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾[المدثر: ١-٥) فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ).
أخرجه البخاري برقم: ٣، ومسلم برقم: ١٦٠، وأحمد في المسند: ٦/ ٢٣٣ .

أبشر فإني وإياك في الجنة:

جاء في كتاب الأذكياء لابن الجوزي رحمه الله تعالى ما نصه:

(دخل عمران بن حطان يوماً على امرأته، وكان عمران قبيحا دميما قصيرا، وقد تزينت، وكانت امرأة حسناء، فلما نظر إليها ازدادت في عينه جمالاً وحسناً، فلم يتمالك أن يديم النظر إليها.

فقالت: ما شأنك ؟.

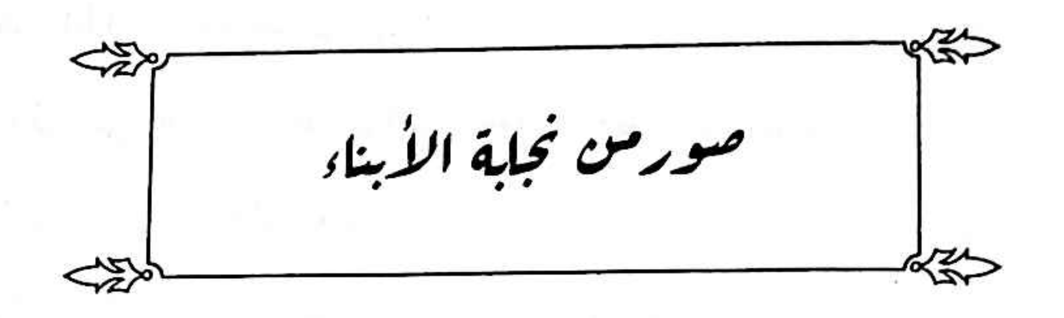
قال: لقد أصبحت والله جميلة.

فقالت: أبشر فإني وإياك في الجنة.

قال: ومن أين علمت ذلك ؟.

قالت: لأنك أعطيت مثلي فشكرت، وابتليت بمثلك فصبرت، والصابر والشاكر في الجنة). كتاب الأذكياء: ص٢٥٤.





صور من نجابة الأبناء

اتستعينين في حال الشدة بمخلوق :

١- من ذلك ما جاء عن منصور بن عمار - رحمه الله تعالى - أنه أصاب أمه وجع الولادة، وعندها قابلتها وهو صبي بين يديها.

فقالت له: يا منصور، بادر إلى أبيك فادعه.

فقال لها: أتستعينين في حال الشدة بمخلوق لا يضر ولا ينفع وأكون أنا رسولك إليه ؟

قالت: الساعة أموت.

قال لها: قولي: يا الله أغثني.

فقالت ذلك، فاندلق جنينها من ساعته). أنباء نجباء الأبناء لابن مظفر المكي: ص١٦٣.

يا شيخ تطعم أولاد المسلمين السحت:

٢- ومن ذلك ما جاء عن الحارث المحاسبي - رحمه الله تعالى -:

أنه - وهو صبي - مر بصبيان يلعبون على باب رجل تمار، فوقف الحارث ينظر إلى لعبهم، وخرج صاحب الدار ومعه تمرات.

فقال للحارث: كل هذه التمرات.

قال الحارث: ما خبرك فيها ؟

قال: إني بعت الساعة تمراً من رجل فسقطت من تمرء.

فقال: أتعرفه ؟ قال: نعم.

فالتفت الحارث إلى الصبيان الذين يلعبون وقال:

أهذا الشيخ مسلم ؟ قالوا: نعم، فمر وتركه.

فتبعه التمار حتى قبض عليه، فقال:

والله لا تنفلت من يدي حتى تقول لي ما في نفسك مني.

قال: يا شيخ، إن كنت مسلماً فاطلب صاحب التمرات حتى تتخلص من تباعته، كما تطلب الماء إذا كنت عطشاناً شديد العطش، يا شيخ تطعم أولاد المسلمين السحت - الحرام - وأنت مسلم ؟ !

فقال الشيخ: والله لا اتجرت للدنيا أبداً). أنباء نجباء الأبناء لابن ظفر المكي: ص١٤٨.

نحن لهم سماء ظليلة، وارض ذليلة:

٣- جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير - رحمه الله تعالى - ما نصه:

(أن يزيد بن معاوية فعل فعلاً أغضب والده، فهجره، وكان الأحنف بن قيس - رحمه الله تعالى - حاضراً، فقال:

يا أمير المؤمنين، إنما هم أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، إن غضبوا فأرضهم، وإن طلبوا فأعطهم، ولاتكن عليهم ثقيلاً فيملوا حياتك، ويتمنوا موتك.

فقال معاوية ﷺ: لله درك يا أبا بحر ! يا غلام، ائت يزيد، فأقرئه مني السلام،

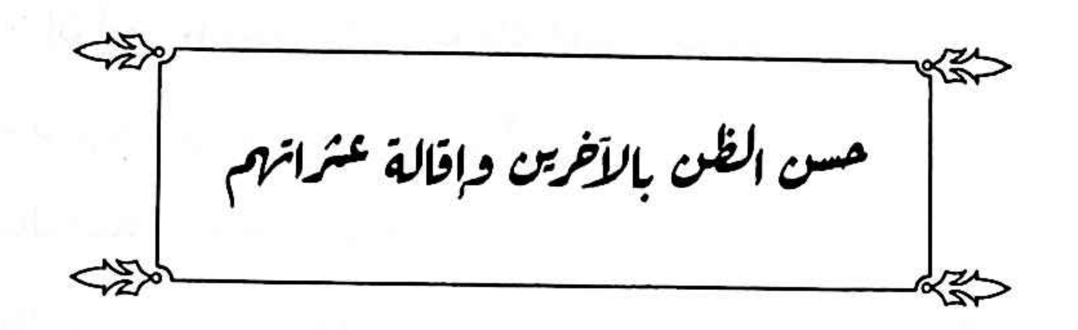
وقل له: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائة ألف درهم ومائة ثوب.

فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين ؟

فقال الغلام: الأحنف بن قيس.

فقال يزيد: لا جرم، لأقاسمنه، فبعث إلى الأحنف بخمسين ألفاً، وخمسين ثوباً). البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٨ .





حسن الظن بالآخرين وإقالة عثراتهم

قال الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى -: إن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم، لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل بعين الرضا بعضهم، وبعين السخط بعضهم، ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء، وعن تهمة الأشرار، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر، فمهما رأيت إنسانا سيئ الظن بالناس طالباً للعيوب، فاعلم أنه خبيث الباطن، وأن خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق). إحياء علوم الدين: ٣/ ٣٦ .

لو شتمتني ما اردت إلا الخير:

١- عن الربيع بن سليمان - رحمه الله تعالى - قال:

(دخلت على الشافعي- رحمه الله تعالى - - وهو مريض - فقلت له: قوى الله ضعفك.

فقال: لو قوي ضعفي قتلني.

فقلت: والله ما أردت إلا الخير.

قال: أعلم أنك لو شتمتني لم ترد إلا الخير). آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم: ص٢٧٤].

قد يعثر الجواد:

فقد جاء في ترجمة الإمام شيخ القراءة والعربية، أبي الحسن علي بن حمزة الأسدي، مولاهم الكوفي، الملقب بالكسائي - رحمه الله تعالى -الحادثة التالية:

٢- قال الكسائي - رحمه الله تعالى -:

(صليت بهارون الرشيد - رحمه الله تعالى -، فأعجبتني قراءتي، فغلطت في آية ما أخطأ فيها صبي قط، أردت أن أقول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾، فقلت: «لعلهم يرجعين».

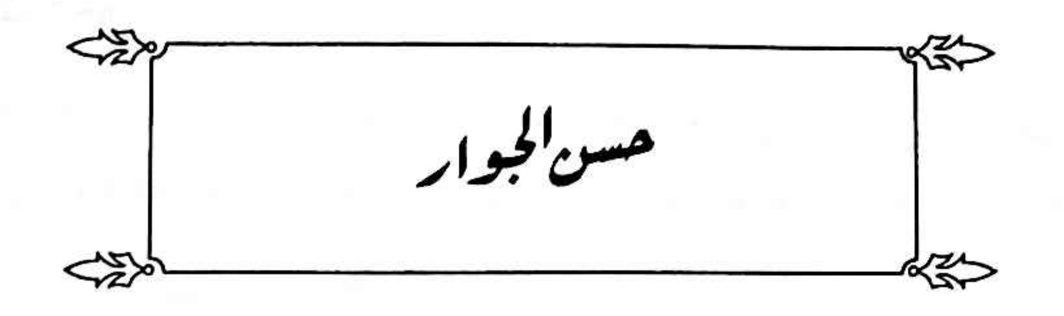
قال: فوالله ما اجترأ هارون أن يقول لي: أخطأت، ولكنه لما سلمت، قال لي:

يا كسائي أي لغة هذه ؟.

قلت: يا أمير المؤمنين قد يعثر الجواد.

فقال: أما هذا فنعم). تاريخ بغداد: ١١/ ٤٠٧-٤٠٨، غاية النهاية: ١/ ٥٣٨، وإنباه الرواة: ٢/ ٢٦٣، وسير أعلام النبلاء: ٩/ ١٣٣.





حسن الجوار

إن من علامات الصلاح التي يوصف بها الإنسان المسلم، والتي تكشف عن جودة معدنه، ومحبته لربه عز وجل، حسن جواره لمن جاوره من المسلمين، أو غيرهم من أهل الملل الأخرى، فقد أمر النبي ﷺ بحسن الجوار، ورعاية حقوق الجيران حيث قال ﷺ: (ما زال جبريلُ يوصيني بالجار، حتى ظننتُ أنّه سَيُوَرِّثُهُ). أخرجه البخاري برقم: ٦٠١٤، ومسلم: ٢٦٢٤، وأبو داود برقم: ٥١٥١.

فالجار الصالح خير لجاره من الأخ الشقيق البعيد في محل إقامته، حتى بلغ الأمر ببعض الناس فيما مضى أن يطالبوا ويغالوا بثمن حسن الجوار، وهذه بعض النماذج في هذا الباب:

هل يُشترى جوار قط:

١- باع أبو الجهم العدويُّ - رحمه الله تعالى - دارَه بمائة ألف درهم، ثم قال: فبكم تشترون جوار سعيد بن العاص - رحمه الله تعالى - ؟

قالوا: وهل يُشترى جوار قطّ.

قال: ردُّوا عليَّ داري، ثُمَّ خذوا مالكُم، لا أدع جوار رجل، إن قعدت، سأل عنّي، وإن رآني، رحب بي، وإن غبتُ، حفظني، وإن شهدت، قربني، وإن سألته، قضى حاجتي، وإن لم أسأله، بدأني وإن نابتني جائحة، فرَّج عني.

فبلغ ذلك سعيداً، فبعث إليه بمائة ألف درهم). وفيات الأعيان: ٢/ ٥٣٥.

الف لجوار عبد الله:

٢- كان لعبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى - جارٌ يهودي، فأراد أن يبيع داره، فقيل له:

بكم تبيع؟ قال: بألفين.

فقيل له: لا تساوي إلا ألفاً.

قال: صدقتم، ولكن ألف للدار، وألف لجوار عبد الله، فأُخبرَ ابنُ المبارك، فدعاه فأعطاه ثمن الدار وقال: لا تبعها). المكارم والمفاخر لأبي بكر الخوارزمي: ص٢٣.

لا ابيع جوار عبد الله بن طاهر بالدنانير:

٣) كانت عجوز في جوار عبد الله بن طاهر - رحمه الله تعالى - أمير خراسان في العهد العباسي، ولها أربع بنات، فقيل لها:

أنت فقيرة، فلو بعت دارك وتوسعت بها على نفسك وعيالك ؟!.

فقالت: نعم، غير أني لا أبيع جوار عبد الله بن طاهر بالدنانير.

فانتهى إليه الخبر، فدعا عبدالله دلالة النساء، وقال لها: إن لي أربع بنات، فاطلبي أزواجاً كراماً لهن، فجهزهن كل واحدة بمائة ألف من خزانته) المكارم والمفاخر لأبي بكر الخوارزمي

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من الإساءة للجيران، أو تسبيب الأذى الجسدي والمعنوي لهم، حيث قال - ﷺ - مبيناً وموضحاً ومحذراً:

(لا يدخل الجنة من لا يأمن جارُه بوائقه).

اخرجه مسلم برقم: ٤٦، وأحمد في المسند: ٢/ ٣٧٣ .

وقال ﷺ:

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره).

أخرجه البخاري برقم: ٦٤٧٥، ومسلم برقم: ٤٧، وأبو داود: ٥١٥٤.

فحذارِ! حذارِ! أن تكون الجار الذي يَنفرُ الناسُ منه، ويُباعُ جواره بأرخص الأثمان، فقد جاء في ترجمة التابعي الجليل أبي الأسود الدؤلي -رحمه الله تعالى- ما نصه:

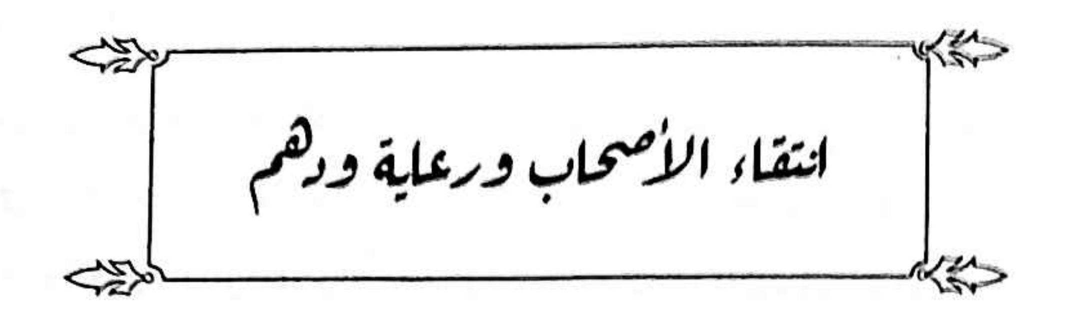
(كان لأبي الأسود الدؤليِّ بالبصرة دارٌ، وله جار يتأذى منه في كلِّ وقتٍ فباع الدار، فقيل له:

بعت دارك.

قال: بل بعتُ جاري.

فأرسلها مثلاً). وفيات الأعيان: ٢/ ٥٣٧.





انتقاء الأصحاب ورعاية ودهم

إن هذا الأمر من أعظم ما يبعث الهمة، ويربي الأخلاق الرفيعة في النفس، ويعين على تزكية النفس وتهذيبها، فالإنسان مولع بمحاكاة من حوله، شديد التأثر بمن يصاحبه.

والصداقة أو الصحبة الشريفة -لا صداقة المنفعة أو صحبة المصلحة- تشبه سائر الفضائل من حيث رسوخها في النفس، وإيتاؤها ثمراً طيباً في كل حين، فهي توجد من الجبان شجاعاً، ومن البخيل سخاء، فالجبان قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يخوض في الخطر ليحمي صديقه من نكبة.

والبخيل قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يبذل جانباً من ماله لإنقاذ صديقه من شدة.

فالصحبة المتينة لا تحل في نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة، فالمتكبر تنزل به الصداقة إلى أن يتواضع لأصحابه، وسريع الغضب تضع الصحبة في نفسه شيئاً من كظم الغيظ، فيجلس إلى أصحابه في حلم وأناة، وربما اعتاد التواضع والحلم، فيصير بعد ذلك متواضعاً حليماً.

بل إن كثيراً من النابغين يعزون نبوغهم إلى أنهم وفقوا لاختيار صاحب أو أصحاب أثروا فيهم أثراً صالحاً، ونبهوا فيهم قوى كانت خاملة.

فإذا ما وفق المرء لصحبة الأجلاء العقلاء من ذوي الدين والمروءة فإن ذلك من علامات توفيقه، ومن مهيئات نبوغه. فإذا كان الأمر كذلك فما أجدر المرء أن يبحث عن إخوان الثقات، وأصحاب الخير، حتى يعينوه على كل خير، ويقصروه

عن كل شر.

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى -: من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة.

ومن طلب الجاه، والمال، واللذات لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلبة، والثعالب الخلبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة). الأخلاق والسير ص: ٢٤-٢٥ .

ولما للصديق من تأثير بالغ في صديقه، فقد يكون سبباً بالتذكير بالله، وقد يضل عن الذكر، وقد يكون حاملاً للمسك، أو يكون نافخاً للكير، ولذلك جاء التأكيد على اختيار الصاحب في كتاب الله، وعلى لسان رسول الله، وجاء الثناء على حسن اختيار الصاحب على ألسنة الصالحين ممن كان لهم قصب السبق في أبواب الخير الكثيرة.

كيف تنتقي الأصحاب:

الصحبة ميزان ومقياس لعقل الإنسان، ونبل أخلاقه، فمصاحبة العقلاء تنسب صاحبها إليهم وإن لم يكن منهم، ومصاحبة الجهال تنسب فاعلها إليهم وإن لم يكن منهم، ولذلك حرص السلف الصالح على حث أبنائهم على انتقاء الأصحاب واختيار الأصدقاء وفقاً لموازين غاية في الدقة.

أوصى علقمة بن لبيد العطاردي ابنه:

(يا بني! إذا نزعَتْك إلى صحبة الرجال حاجةٌ، فاصحب منهم من إن صحبتَهُ؛ زانك، وإن خدمته، صانك، وإن أصابتك خصاصة مانك، وإن قلتَ صدَّق قولك، وإن صُلتَ شدَّ صولك، وإن مددتَ يدك بفضلٍ مدها، وإن رأى منك حسنةً؟ عدَّها، وإن سألته أعطاك، وإن سكتَّ عنه ابتداك، وإن نزلت بك إحدى الملمات،

آساك، من لا يأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق، إن حاول حويلاً، آمرك، وإن تنازعتما مُنفساً آثرك). عيون الأخبار: ٣/ ٤.

وأما خالد بن صفوان فقد سئل - رحمه الله تعالى -: أي إخوانك أحب إليك؟.

قال: (الذي يغفر زللي، ويقبل عللي، ويسد خللي). عيون الأخبار: ٣/ ١٧.

ضرر اصحاب السوء وعدم نصحهم:

ومن تلك الدروس العظيمة في انتقاء الأصحاب ذلك الدرس الذي علمه الأمير محمد بن حميد الطوسي - رحمه الله تعالى - لأصحابه وجلسائه، حين ذكر صفات أفضل الأصحاب حيث جاء في كتاب (نهاية الأرب) و(قصص العرب) ما نصه:

(كان محمد بن حميد الطوسي على غدائه يوماً مع جلسائه، وإذا بصيحة عظيمة على باب داره، فرفع رأسه، وقال لبعض غلمانه، ما هذه الضجة؟ من كان على الباب فليدخل.

فخرج الغلام، ثم عاد إليه، وقال: إن فلاناً أُخذ وقد أوثق بالحديد، والغلمان ينتظرون أمرك فيه.

فرفع يديه من الطعام، فقال رجل من جلسائه:

الحمد لله الذي أمكنك من عدوك، فسبيله أن تسقي الأرض من دمه، وأشار كل من جلسائه عليه بقتله على صفة اختارها وهو ساكت.

فأدخل رجل لا دَمَ فيه، فلما رآه هشَّ إليه، ورفع مجلسه، وأمر بتجديد الطعام، وباسطه بالكلام، ولقّمه (اعتنى بإطعامه) حتى انتهى الطعام، ثم أمر له بكسوة حسنة، وصلة، وأمر برده إلى أهله مكرماً، ولم يعاتبه على جرم ولا جناية.

ثم التفت إلى جلسائه وقال لهم: إنّ أفضل الأصحاب من حضّ الصاحب على المكارم، ونهاه عن ارتكاب المآثم، وحسن لصاحبه أن يجازي الإحسان بضعفه، والإساءة بصفحه، إنا إذا جازينا من أساء إلينا بمثل ما أساء، فأين موقع الشكر على النعمة فيما أُتيح من الظفر؟!

إنه ينبغي لمن حضر مجالس الملوك أن يمسك إلا عن قول سديد وأمر رشيد، فإن ذلك أدوم للنعمة وأجمع للألفة، إن الله تعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]). نهاية الأرب: ٦/ ٦٣، وقصص العرب: ١/ ٢٩٦.

فقه الصحبة وآدابها:

ومما يوضح لنا أن للصحبة آداباً وفقهاً خاصاً على كثير ممن يدعون أنهم أصحاب وأخوة أوفياء أن يتعلموها، ما جاء عن فقيه المغرب الإمام العلامة أبي سعيد عبد السلام بن حبيب التوخي المعروف بسحنون - رحمه الله تعالى-:

(أرسل أسد بن الفرات - رحمه الله تعالى - وهو قاض إلى سحنون، وعون، وابن رشيد، وموسى الصمادحي - رحمهم الله تعالى-، فسألهم عن مسألة في الأحكام، فأجاب فيها ابن رشيد وعون، وأبى فيها سحنون عن الجواب. فلما خرجا عذلاه في تركه، فقال لهما:

(منعني أنكما بدرتما بالجواب فأخطأتما، وكرهت أن أخالفكما فندخل عليه إخواناً، ونخرج أعداء.

وبين لهما وجه خطأهما، فجزياه خيراً، واعترفا، ورجعا إلى أسد، فأخبراه برجوعهما). ترتيب المدارك للقاضي عياض: ٢/ ٦١٤.

دستور الصحبة:

جاء في ترجمة الخليفة الراشد الزاهد عمر بن عبد العزيز- رحمه الله تعالى- تحديد لمعالم دستور الصحبة فقد جاء:

(عن سلام بن سليم - رحمه الله تعالى - قال:

لما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر وكان أول خطبة حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا:

يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها.

ويعيننا على الخير جهده.

ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه.

ولا يغتابن عندنا أحداً.

ولا يعرضن فيما لا يعنيه.

فانقشع عنه الشعراء والخطباء، وثبت معه الفقهاء والزهاد، وقالوا:

ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله). البداية والنهاية ٩/ ٢٠٦، وتهذيب الكمال: ٢/ ٤٤٢.

وجاء في ترجمة الخليفة عبد الملك بن مروان - رحمهم الله تعالى - ما نصه:

(قال ابن عائشة: كان عبد الملك إذا دخل عليه رجل من أفق من الآفاق قال له: أعفني من أربع، وقل بعدها ما شئت:

لا تكذبني فإن الكذوب لا رأي له.

ولا تجبني فيما لا أسألك، فإن فيما أسألك عنه شغلاً.

ولا تطرني فإني أعلم بنفسي منك.

ولا تحملني على الرعية، فإني إلى الرفق بهم أحوج). تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص٢١٩.

إظهار الود والمحبة علامة على صدق العلاقة:

جاء في ترجمة الإمام الزاهد الرباني منشئ علم العروض الخليل بن أحمد الفراهيدي - رحمه الله تعالى - ما نصه: (قال محمد بن العباس النحوي، عن الفضل ابن محمد اليزيدي:

(قدم الخليل بن احمد عليَّ، وأنا على طنفسة، فأوسعت له عليها، فأبى إلا القعود معي عليها، ثم قال:

مهلاً إن الموضع الضيق يتسع بالمتحابين، وإن الواسع من الأرض ليضيق بالمتباغضين، ثم أنشأ الخليل بن أحمد يقول:

يقولون لي دار المحبين قد دنت ... وإني كئيبٌ إنَّ ذا لعجيبُ

فقلت وما يغني الديار وقربُها ... إذا لم يكن بين القلوب قريب

تهذيب الكمال: ٨/ ٣٢٩.

رايتك تحب من اعطيته:

ومن أعجب الأساليب في التحبب إلى الآخرين وكسب ودهم ومحبتهم هذا النموذج الرائع، وهذه القصة العجيبة:

قال أبو الحسن المدائني - رحمه الله تعالى -:

قام رجل إلى أسد بن عبد الله - رحمه الله تعالى - فسأله، فأعرض عنه.

فقال: أما والله إني لا أسألك من غير حاجة.

قال: فما يدعوك إلى مسألتي إذاً ؟.

قال: رأيتك تحب من أعطيته، فأحببت أن تحبني.

فأعطاه عشرة آلاف درهم). لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص: ١٠٩.

الحر من راعى وداد لحظة، ودان لمن علمه لفظة:

عبارة تكتب بماء الذهب أطلقها فقيه المودة والمحبة والزهد أيوب السختياني - رحمه الله تعالى -، ليجعل منها برقية يرسلها إلى قلوب المتحابين الذين يحسنون رعاية الود، فالحر هو الذي يحسن رعاية ود اللحظات، ويحفظ حق الصحبة والأخوة.

اقرا وتدبر:

وهذه دعوة لكم لتقرؤوا هذه النماذج الرائعة بإمعان:

وفاء الأشراف:

عن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال:

لما حضرت سعيد بن العاص - رحمه الله تعالى - الوفاة جمع بنيه، فقال:

أيكم يكفل ديني ؟ فسكتوا.

فقال: مالكم لا تكلمون ؟.

فقال عمرو الأشدق وكان عظيم الشدقين: وكم دينك يا أبة ؟.

قال: ثلاثون ألف دينار.

قال: فبما استدنتها يا أبة ؟.

قال: في كريم سددت فاقته، وفي لئيم فديت عرضي منه.

فقال عمرو: هي علي يا أبة.

فقال سعيد: مضت خلة وبقيت خلتان.

فقال عمرو: وما هما يا أبة ؟.

قال: بناتي لا تزوجهن إلا من الأكفاء، ولو بعلق الخبز الشعير.

فقال: وأفعل يا أبة.

قال سعيد: مضت خلتان وبقيت خلة واحدة.

فقال: وما هي يا أبة ؟.

فقال: إخواني إن فقدوا وجهي فلا يفقدوا معروفي.

فقال عمرو: وأفعل يا أبة.

فقال سعيد: أما والله لئن قلت ذلك، لقد عرفت ذلك في حماليق وجهك وأنت في مهدك.

ثم قال سعيد: ما شتمت رجلاً منذ كنت رجلاً، ولا كلفت من يرتجيني أن يسألني لهو أمنّ علي مني عليه إذا قضيتها له إذ قصدني لحاجته). تهذيب الكمال: ٢٢/ ٣٧.

٢- أورد الإمام ابن خلكان -رحمه الله تعالى - في كتابه النفيس -وفيات الأعيان - هذه القصة الرائعة حيث قال:

قال أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري في كتاب (أخبار الوزراء): وجدتُ بخطّ أبي عليّ أحمد بن إسماعيل: حدثني العباس بن جعفر الأصبهاني قال: طُلبَ عبد الحميد بن يحيى الكاتب- رحمه الله تعالى -، وكان صديقاً لابن المقفع، ففاجأهما الطلب وهما في بيت، فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟

فقال كلُّ واحدٍ منهما: أنا، خوفاً من أن ينال صاحبه مكروه.

وخاف عبد الحميد أن يُسرعوا إلى ابن المقفع، فقال:

ترفَّقوا بنا، فإنَّ كلاً منا له علامات، فوكِّلوا بنا بعضكم، ويمضي البعض بتلك العلامات لمن وجَّهكم.

ففعلوا، وأُخذ عبد الحميد). وفيات الأعيان: ٣/ ٢٣١ .

٣- أورد الإمام أبي عبد الله البخاري - رحمه الله تعالى - في كتابه (محاسن الإسلام) حيث قال:

(إن الحجَّاج أحضر رجلاً، فأمر بضرب عنقه، فقال الرجل:

أيها الأمير خذ بيدي، وامشي معي إلى بساطك، ثم اصنع بي ما شئت.

فأجابه الحجَّاج، فقال الرَّجُل:

بحقِّ الصحبة أن تعفوَ عني.

فعفا عنه، وقال: أتيتَ بشفيع عظيم.

فلم يضيع الحجاج صحبة لحظة) محاسن الإسلام لأبي عبد الله البخاري:ص٤١.

فهذا الحجاج الذي قيل فيه ما قيل، رعى صحبة لحظة ولم يضيعها، ونحن كم قضينا من لحظات وساعات وأيام وسنوات في صحبة إخواننا، فهذه الصحبة تستحق منا أن نراعي حقها.

آثر حياتهم على حياته ولو للحظة رعاية لود إخوانه:

٤- جاء في ترجمة الإمام الرباني شيخ الصوفية في وقته أحد المذكورين بكثرة الاجتهاد وحسن العبادة أحمد بن محمد أبي الحسين النوري -رحمه الله تعالى - ما نصه: (قال أبو نعيم: سمعت عمر البناء البغدادي - بمكة - يحكي قال:

(لما كانت محنة غلام الخليل، ونسب الصوفية إلى الزندقة، أمر الخليفة بالقبض

عليهم، فأخذ في جملة من أخذ النوري في جماعة، فأدخلوا على الخليفة فأمر بضرب أعناقهم.

فتقدم النوري مبتدراً إلى السياف ليضرب عنقه، فقال له السياف:

ما دعاك إلى الابتدار إلى القتل من بين أصحابك ؟.

فقال: آثرت حياتهم على حياتي هذه اللحظة !.

فتوقف السياف عن قتله، ورفع أمره إلى الخليفة، فرد أمرهم إلى قاضي القضاة، وكان يلي القضاء يومئذ إسماعيل بن إسحاق، فتقدم إليه النوري، فسأله عن مسائل في العبادات من الطهارة والصلاة، فأجابه.

ثم قال له: وبعد هذا لله عباد يسمعون بالله، وينطقون بالله، ويصدرون بالله، ويردون بالله، ويأكلون بالله، ويلبسون بالله.

فلما سمع إسماعيل كلامه بكى بكاء طويلا، ثم دخل على الخليفة فقال:

إن كان هؤلاء ألقوم زنادقة فليس في الأرض موحد.

فأمر بتخليتهم، وسأله السلطان يومئذ: من أين يأكلون ؟.

فقال: لسنا نعرف الأسباب التي يستجلب بها الرزق، نحن قوم مدبرون.

وقال لي: من وصل إلى وده، أنس بقربه، ومن توصل بالوداد، اصطفاه من بين العباد). تاريخ بغداد: ٥/ ١٣٤، حلية الأولياء: ١٠/ ٢٥٠-٢٥١، سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٧١، ترتيب المدارك: ٣/ ١٧٧.

فرح برعاية الود:

٥- ومن ذلك ما جاء عن رباح بن الجراح العبدي أنه قال:

(جاء فتح الموصلي - رحمه الله تعالى - إلى صديق له يقال له عيسى التمار

فلم يجده في المنزل، فقال للخادم:

أخرجي إلي كيس أخي، فأخرجته له فأخذ درهمين، وجاء عيسى إلى منزله، فأخبرته الخادم بمجيء فتح وأخذه الدرهمين فقال:

إن كنت صادقة فأنت حرة.

فنظر فإذا هي صادقة فعتقت) الإخوان لابن أبي الدنيا: ص٢٠٦-٢٠٧)، وإتحاف السادة المتقين للزبيدي: ٦/ ٢٠٥.

اسال غيري عن عيبك:

٦- صحب رجل أبا إسحاق إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى -، فلما أراد أن يفارقه، قال له:

لو نبهتني على ما في من العيب.

فقال له: يا أخي، لم أر لك عيباً، لأني لحظتك بعين الولاء، فاستحسنت منك ما رأيت، فاسأل غيري عن عيبك.

وفي ذلك أنشدوا:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

الأنوار في صحبة الأخيار: للشعراني ص٤٩-٥٠ .

وفاء العبيد والخدم:

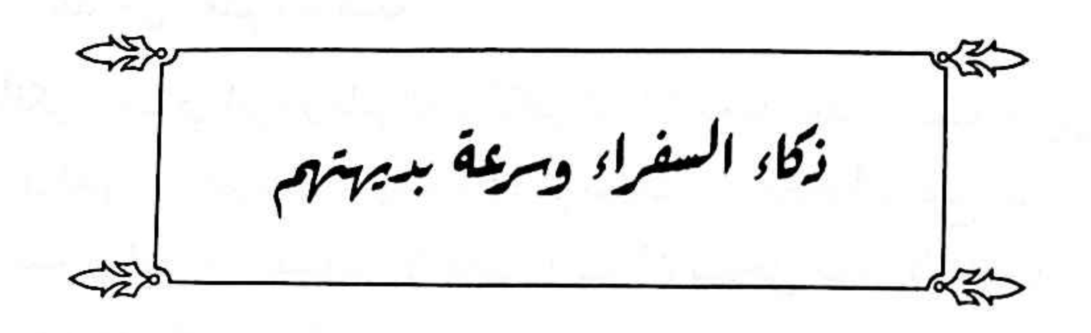
٧- ومن ذلك ما جاء في كتاب الإمتاع والمؤانسة:

أن عبداً حبشياً ناوله مولاه شيئاً يأكله، ثم قال له: أعطني قطعة منه فأعطاه، فلما أكله وجده مراً، فقال: يا غلام كيف أكلت هذا مع شدة مرارته؟ فقال: يا مولاي، قد أكلت من يدك حلوا كثيراً، ولم أحب أن أريك من نفسي كراهة لمرارته

الإمتاع والمؤانسة (٢/ ١٢١).

و نحن كم عشنا مع إخواننا من الزمن، وسمعنا من عذب كلماتهم، ورأينا من حلو تصرفاتهم، ألا يدفعنا هذا لنراعي هذه اللحظات عند رؤيتنا لشيء من الجفاء يواجهنا منهم عن غير قصد، فإذا حصل ووقعت الجفوة أو الوحشة أو النفرة، فعلينا أن لا نترك كرم العهد، ولا نفشي الأسرار التي نعلمها عنهم:

نصل الصديق إذا أراد وصالنا ... و نصد عند صدوده أحيانا
إن صد عني كنت أكرم مُعرضٍ ... و وجدت عنه مذهباً و مكانا
لا مفشيا بعد القطيعة سره ... بل كاتماً من ذاك ما استرعانا
إن الكريم إذا تقطع وده ... كتم القبيح و أظهر الإحسانا



لله ابوه، والله ما اردت إلا ذاك:

١- قال ابن عائشة:

وجه عبد الملك بن مروان- رحمه الله تعالى - الشعبي - رحمه الله تعالى - إلى ملك الروم - يعني رسولاً - فلما انصرف من عنده.

قال: يا شعبي أتدري ما كتب به إلي ملك الروم ؟.

قال: وما كتب به يا أمير المؤمنين ؟.

قال: كتب: أتعجب لأهل ديانتك، كيف لم يستخلفوا عليهم رسولك.

قال: يا أمير المؤمنين لأنه رآني ولم يرك.

وزاد الأصمعي فيها: قال: يا شعبي، إنما أراد أن يغريني بقتلك.

فبلغ ذلك ملك الروم، فقال: لله أبوه، والله ما أردت إلا ذاك.

سير أعلام النبلاء ج: ٤ ص: ٣٠٤.

وقعت له الهيبة في نفسه:

٢- عن أبي القاسم علي بن الحسن بن علي أبي عثمان الدقاق وغيره:

(أن الملك الملقب بعضد الدولة كان قد بعث القاضي أبا بكر بن الباقلاني - رحمه الله تعالى - في رسالة إلى ملك الروم، فلما ورد مدينته عرف الملك خبره،

وتبين له محله من العلم وموضعه.

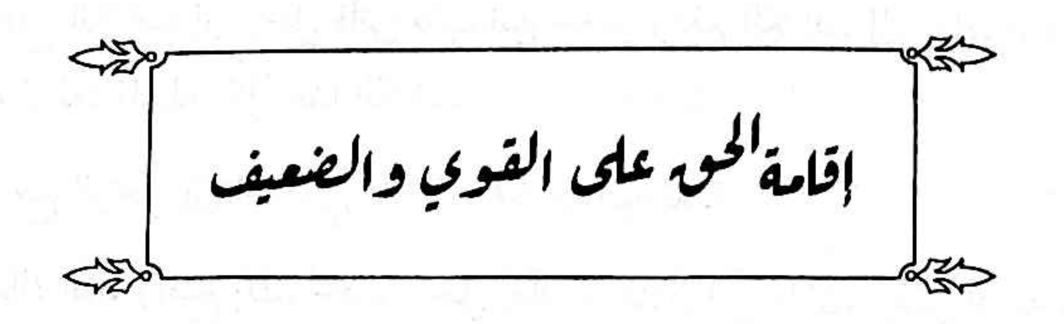
فأفكر الملك في أمره وعلم أنه لا يُكَفر لـه إذا دخـل عليـه، كمـا جـرى رسـم الرعية أن تقبل الأرض بين يدي الملوك، ثم نتجت له الفكرة أن يضع سريره الـذي يجلس عليه وراء بـاب لطيـف، لا يمكـن أحـد أن يـدخل منـه إلا راكعـا، ليـدخل القاضي منه على تلك الحال، فيكون عوضاً من تكفيره بين يديه.

فلما وضع سريره في ذلك الموضع أمر بإدخال القاضي من الباب، فسار حتـى وصل إلى المكان، فلما رآه تفكر فيه ثم فطن بالقصة فأدار ظهره، وحنا رأسه راكعـاً ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه، قد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديـه، ثم رفع رأسه ونصب ظهره، وأدار وجهه حينئذ إلى الملك !.

فعجب من فطنته، ووقعت له الهيبة في نفسه).

تاريخ بغداد ج: ٥ ص: ٣٧٩، وترتيب المدارك: ٤/ ٥٩٦، والبداية والنهايـة: ١١/ ٣٥٠ في ترجمة القاضي البارع العالم محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني.





إقامة الحق على القوي والضعيف

إن العدل أساس متين لأي حكم، فإذا فقد الحُكم العدل قصر عمره، وقلت أيامه، والعدل لا يظهر في أبهى صوره إلا حين يقام على القوي والضعيف في آن واحد، وإذا أقيم على الضعيف دون القوي، وعلى العامة دون الخاصة، فإن هذا سبب كافٍ لهلاك الأمم، وانقراض الحضارات، ولذلك قال ﷺ: (إنما ضَلَّ مَنْ قَبلُكم كانوا إذا سَرقَ الشَّريفُ تَركُوه، وإذا سَرَقَ الضَّعيفُ فيهم أقاموا عليهِ الحدَّ، وايمُ الله، لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطع محمدٌ يدها). أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨٨.

ولقد ضرب قضاة الخلافة الإسلامية أروع الأمثلة في إقامة الحق والعدل على أقرب المقربين من الخلفاء، ولقد ناصرهم الخلفاء في ذلك، وإليكم هذا النموذج، الذي ذكره صاحب كتاب (العقد الفريد للملك السعيد) وصاحب كتاب (قصص العرب):

لا يفلح قاضٍ لا يقيم الحق على القوي والضعيف:

(كان عُبيد بن ظبيان - رحمه الله تعالى - قاضي الرقة في زمن الرشيد، وكان الرشيد بها إذ ذاك، فجاء رجل إلى القاضي، فاستعداه على عيسى بن جعفر، فكتب إليه القاضي ابن ظبيان:

أما بعد، أبقى الله الأمير وحفظه وأتم نعمته، فقد أتاني رجل فذكر أنه فلان بن فلان، وأن له على الأمير -أبقاه الله- خمسمائة ألف درهم، فإن رأى الأمير أن يحضر مجلس الحكم، أو يوكل وكيلاً يناظر خصمه، أو يرضيه فعل.

ودفعَ الكتاب إلى رجل فأتى باب ابن جعفر ودفع الكتاب إلى خادمه، فأوصله إليه، فقال له: قل له: كُلْ هذا الكتاب.

فرجع الرجل إلى القاضي فأخبره، فكتب إليه ثانية:

أبقاك الله، وأمتع بك، حضر رجل يقال له فلان ابن فلان، وذكر أن له عليك حقاً، فسر معه إلى مجلس الحكم، أو وكيلك، إن شاء الله تعالى.

ووجه الكتاب مع عونين من أعوانه فحضرا باب ابن جعفر، ودفعا الكتاب إليه فغضب ورمى به، فانطلقا، وأخبرا القاضي، فكتب إليه:

حفظك الله وأمتع بك، لا بدَّ أن تصير أنت أو وكيلك إلى مجلس الحكم، فإن أبيتَ أنهيتُ أمركَ إلى أمير المؤمنين -إن شاء الله.

ووجه الكتاب مع رجلين من أصحابه، فقعدا على باب عيسى بن جعفر حتى طلع، فقاما إليه، ودفعا إليه كتاب القاضي، فلم يقرأه ورمى به، فعادا فأبلغاه ذلك، فختم قمطره، وأغلق بابه وقعد في بيته.

بلغ الخبر أمير المؤمنين هارون الرشيد، فدعا ابن ظبيان وسأله عن إغلاق بابه فأكد الخبر، ثم قال:

يا أمير المؤمنين أعفني من هذه الولاية، فوالله لا يفلح قاضٍ لا يقيم الحق على القوي والضعيف.

فقال له الرشيد: من يمنعك من إقامة الحق؟

قال: عيسى بن جعفر وأخبره الخبر.

فقال الرشيد لإبراهيم بن عثمان:

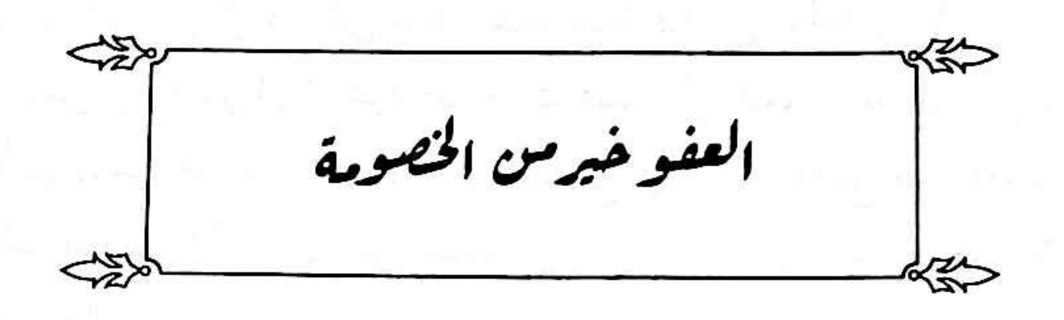
سر إلى دار عيسى بن جعفر، واختم أبوابه كلها، لا يخرج منها أحد ولا يدخل إليها أحد، حتى يُخرج إلى الرجل حقه، أو يسير معه إلى مجلس الحكم.

فارسل إبراهيم إلى دار ابن جعفر بخمسمائة فارس، وأغلق الأبواب كلها، فتوهم عيسى بن جعفر أن الرشيد قد حدث عنده رأي فيه، ولم يعرف الخبر، فجعل يكلم الأعوان من خلف الباب، وارتفع الصراخ في منزله، وضجَّ النساء، ثم قال ابن جعفر لبعض الأعوان من غلمان إبراهيم: ادع لي أبا اسحاق لأُكلمه، فأعلموه، فجاء حتى وقف على الباب.

فقال له عيسى: ويحك! ما حالنا؟

فأخبره خبر القاضي ابن ظبيان، فأمر بإحضار خمسمائة ألف درهم من ساعته فأُحضرت، وأمر أن تدفع إلى الرجل، فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره فقال: إذا قبض الرجل ماله، فافتح أبوابه، وعرفه: إن ما رأيته من سيرتك مع القاضي فإياك ومعارضته). العقد الفريد للملك السعيد: ص١٧٤، وكتاب قصص العرب: ٣/ ٧٨.





العفو خير من الخصومة

اعلم أخي المسلم أن الخصومة تمحقُ الدين، وتشغلُ العقل، وتقتلُ طمأنينة القلب والخاطر، وتُقِضُ المضاجع، وتجعل سُويداءَ الإنسان جحيماً دائم الاستعار والاتقاد، فالعفو والتجاوز -وإن صاحبه هضم وغَبْن- أغنمُ حظاً، إذ يقضي على هذه الآثار كلها، ويُعوِّض بدلاً منها الراحةَ والسكينة والفضل والإحسان، بل إنَّ العفو يزيد صاحبه عزاً ورفعة كما أخبر النبي ﷺ: (... وما زادَ اللهُ عبداً بعفْوٍ إلا عِزاً...). أخرجه مسلم برقم: ٢٥٨٨.

وفيما يلي نورد بعضا من هذه النماذج الرائعة من أدب السلوك الاجتماعي الراقي في هذا الباب:

أكرمُ نفسي عن هذا:

١- فقد وقعت لأحد أتباع التابعين العُبَّاد: سَلْمِ بن قتيبة الباهلي البصري - رحمه الله تعالى - خصومةٌ بينه وبين ابن عم له، فلَجَّ سَلْمٌ فيها حتى انتهت به إلى مجلس القضاء ثم عدلَ عنها إكراماً لنفسه فكان من الغانمين.

(قال سَلْمُ بنُ قُتيبة: مَرَّ بي بشيرُ بن عُبَيْد الله بن أبي بكرة - رحمه الله تعالى - يعني: وهو في مجلس القضاء ينتظرُ المحاكمة بينه وبين خَصْمِهِ-، فقال:

ما يُجلسُك ها هنا؟

قلتُ: خُصُومةٌ بيني وبين ابن عم لي، ادَّعى أشياء في داري.

فقال: إنَّ لأبيك عندي يداً، وإني أريد أن أجزيك بها، والله ما رأيتُ شيئاً

اذهب للدين، ولا أنقصَ للمروءة، ولا أضيعَ لِلَّذةٍ، ولا أشغلَ للقلب من الخصومة.

قال سَلْمُ بنُ قتيبة: فقمتُ لأنصرف، فقال لي خصمي: ما لك؟

قلت: لا أخاصمُك، قال: إنكَ عرفت أنَّ الحقَ لي؟

قلتُ: لا، ولكن أُكرِمُ نفسي عن هذا، وتركتُ الخصومة). إحياء علوم الدين: ٣/ ١١٨، الصمت لابن أبي الدنيا: ص٩٨.

تعلم العفو من هذا:

وقد ضرب السابقون أروع الأمثلة في العفو عند المقدرة، والتسامح عند الخصومة:

٢- قيل للأحنف- رحمه الله تعالى -: ما أحلمك!

قال: تعلمت الحِلْمَ من قيس بن عاصم المِنْقريُّ، بينما هو قاعد بفنائه، مُحتب بكسائه، أتته جماعة فيهم مقتولٌ ومكتوفٌ، وقيل له:

هذا ابنك قتله ابن أخيك.

فوالله ما حل حبوتَه حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابن له في المجلس فقال له:

قم فأطلق عن ابن عمِّك، ووارِ أخاك، واحمل إلى أمِّه مائة من الإبل فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

إني امرؤٌ لا شائنٌ حسبي ... دَنسٌ يُغيِّره ولا أفْنُ
من مِنقَرٍ في بيتِ مكرُمةٍ ... والغصنُ ينبت حولَه الغُصْنُ
خُطَباءُ حين يقول قائلهم ... بيضُ الوجوه، أعفَّه لُسْنُ
لا يفطنون لعيب جارهمُ ... وهُمُ لحفظِ جواره فُطْنُ

ثم أقبل على القاتل فقال: قتلت قرابتك، وقطعت رحمك، وأقللت عـددك، لا يبعد الله غيرك). عيون الأخبار لابن قتيبة: ١/ ٢٨٦-٢٨٧.

لا تغرق في شتمنا:

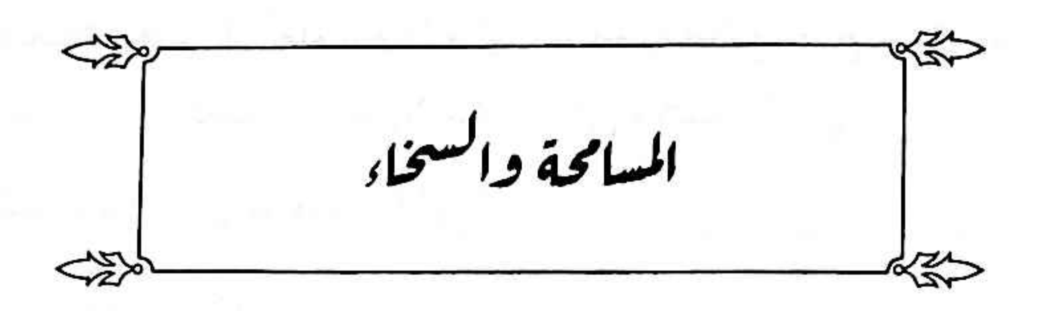
٤- وجاء عن سفيان بن عيينة - رحمه الله تعالى - أنه قال:

(كان بين عمر بن ذر - رحمـه الله تعـالى - وبـين رجـل يقـال لـه ابـن عيـاش شحناء، وكان يبلغ عمر بن ذر أن ابن عياش يتكلم فيه.

قال: فخرج عمر ذات يوم فلقي ابن عياش فوقف معه، فقال له:

لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعاً فإنا لا نكافئ أحداً عصى الله تعالى فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه). كتاب الجليس الصالح الكافي: ٣/ ١٤٥ .





المسامحة والسخاء

وفي هذا الباب من النماذج العجيبة في التسامح والسخاء، ما أورده تالياً:

هل سمعت بمثل هذا؟:

١- جاء عند الإمام ابن خلكان - رحمه الله تعالى - في كتابه النفيس (وفيات الأعيان) في ترجمة الإمام المحدث الجواد صاحب المسند دعلج بن أحمد بن دعلج السجستاني - رحمه الله تعالى - ما نصه:

(قال الخطيب: حدثني أبو بكر محمد بن علي بن عبد الله الحداد -وكان من أهل الدين والقرآن والصلاح -عن شيخ سماه وذهب عني حفظ اسمه قال:

حضرتُ يوم الجمعة المسجدَ الجامع بمدينة المنصور، فرأيت رجلاً بين يديّ في الصف حسنَ الوقار ظاهر الخشوع دائم الصلاة، لم يزل يتنفلُ مُذ دخل المسجد إلى أن قرب قيامُ الصلاة، ثم جلس.

قال: فغلبتني هيبته، ودخل قلبي محبته، ثم أُقيمت الصلاة، فلم يُصَلِّ مع الناس الجمعة، فكبُر عليَّ ذلك من أمره، وتعجبْتُ من حاله، وغاظني فعله، فلما قُضيت الصلاة، وتقدمتُ إليه، وقلت: أيها الرجل! ما رأيت أعجبَ من أمرِك، أطلتَ النافلة وأحسنتها، وتركتَ الفريضة وضيَّعتها!

فقال: يا هذا، إنّ لي عُذراً وبي علَّة منعتني من الصلاة.

قلتُ: وما هي؟

قال: أنا رجلٌ عليَّ دين، اختفيت في منزلي مُدَّةً بسببه، ثم حضرت اليوم

الجامع للصلاة، فقبل أن تُقام التفتُ فرأيت صاحب الدَّيْن، فمن خوفه أحدثتُ في ثيابي، فهذا خبري، فأسألك بالله إلا سترتَ عليَّ وكتمتَ أمري.

فقلت: ومن الذي له عليك الدَّيْن؟

قال: دعلج بن أحمد.

وكان إلى جانبه صاحبٌ لدَعْلَج قد صلّى وهو لا يعرفه، فسمع هذا القول، ومضى في الوقت إلى دَعْلَج، فذكر له القِصَّة.

فقال دَعْلَج: امض إلى الرجل واحمله إلى الحمَّام، واطرح عليه خِلْعةً من ثيابي، وأجلسه في منزلي حتى انصرف من الجامع.

ففعل الرجل ذلك، فلما انصرف دَعْلَج إلى منزله أمر بالطعام فأُحضِر، وأكل هو والرجل، ثم أخرج حسابه، فنظر فيه فإذا له عليه خمسة آلاف درهم.

فقال له: انظر لا يكون عليك في الحساب غلط أو نسي لك نقد.

فقال الرجل: لا.

فضرب دَعلَج على حسابه، وكتب تحته علامة الوفاء، ثم أحضر الميزان ووزن خمسة آلاف درهم، وقال له:

أما الحساب الأول فقد حاللناك مما بيننا، وبينك فيه، وأسألك أن تقبل هذه الخمسة آلاف درهم، وتجعلنا في حلٍّ من الروعة التي دخلت قلبك برؤيتك إيانا في مسجد الجامع). وفيات الأعيان: ٢/ ٢٧١-٢٧٢.

رحم الله أهل السخاء:

٢- جاء في مجالس ثعلب:

(قال ابن شبرمة - رحمه الله تعالى -: زوجت ابني على ألفي درهم فلم أقدر عليها، ففكرت فيمن أقصده، فوقع في قلبي أبو أيوب المورياني - رحمه الله تعالى -،

فدخلت عليه فشرحت له خبري.

فقال: فلك ألفان.

فلما نهضت لأقوم قال: فالمهر ألفان فأين الجهاز ؟ فلك ألفان للجهاز.

فذهبت لأقوم فقال: المهر والجهاز فأين الخادم ؟ فلك ألفان للخادم.

فذهبت لأقوم، فقال: فالشيخ لا يصيب شيئا. قال: فلك ألفان.

فلم أزل أقوم ويقعدني حتى انصرفت من عنده بخمسين ألفا).

[مجالس ثعلب: ٢/ ٤١٥].

للمراة مشاركة وحضور:

٣- عن أبي عبد الله الواقدي القاضي- رحمه الله تعالى - قال:

(أضقت مرة من المرار، وأنا مع يحيى بن خالد البرمكي، وحضر عيد فجاءتني جارية، فقالت: قد حضر العيد، وليس عندنا من النفقة شيء.

فمضيت إلى صديق لي من التجار فعرفته حاجتي إلى القرض، فأخرج إلي كيساً مختوماً فيه ألف ومائتا درهم.

فأخذته وانصرفت إلى منزلي فما استقررت فيه حتى جاءني صديق لي هاشمي، فشكى إلي تأخر غلته وحاجته إلى القرض، فدخلت إلى زوجتي فأخبرتها. فقالت: على أي شيء عزمت ؟.

قلت: على أن أقاسمه الكيس.

قالت: ما صنعت شيئاً، أتيت رجلاً سوقة فأعطاك ألفاً ومائتي درهم، وجاءك رجل له من رسول الله رحم ماسة، تعطيه نصف ما أعطاك السوقة، ما هذا شيئاً، أعطه الكيس كله.

فأخرجت الكيس كله فدفعته إليه، ومضى صديقي التاجر إلى الهاشمي، وكان له صديقا، فسأله القرض، فأخرج الهاشمي إليه الكيس، فلما رأى خاتمه عرفه، وانصرف إلي فخبرني بالأمر.

وجاءني رسول يحيى بن خالد يقول:

إنما تأخر رسولي عنك لشغلي بحاجات أمير المؤمنين، وهو يطلبك.

فركبت إليه، فأخبرته بخبر الكيس فقال: يا غلام هات تلك الدنانير.

فجاءه بعشرة آلاف دينار، فقال: خذ ألفي دينار لك، وألفين لصديقك، وألفين للهاشمي، وأربعة آلاف لزوجتك، فإنها أكرمكم) [تاريخ بغداد: ٣/ ١٩-٢٠، وثمرات الأحداق: ١/ ٢٣١].

وللعباد الزهاد دور بارز:

٤- وقد جاء في كتاب الإمتاع والمؤانسة:

(أن جارية لمنصور بن مهران - رحمه الله تعالى - جاءته بمرقة فهراقتها عليه، فلما أحس بحرها نظر إليها.

فقالت: يا معلم الخير اذكر قول الله.

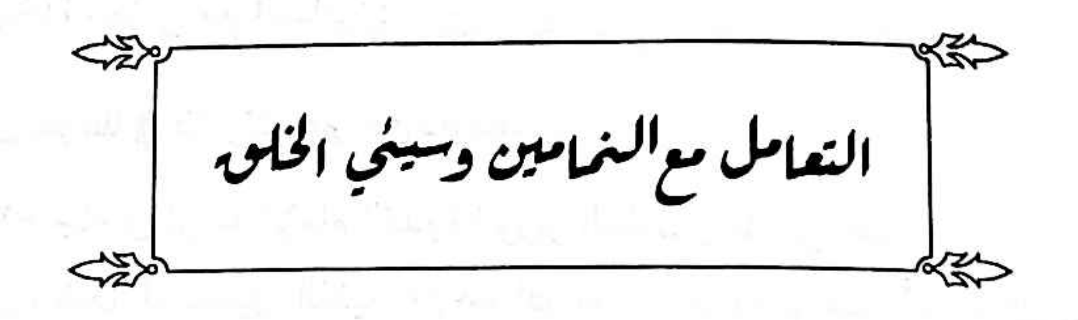
قال: وما هو ؟.

قالت: (والكاظمين الغيظ). قال: كظمت.

قالت: واذكر (والعافين عن الناس). قال: قد عفوت.

قالت: واذكر ﴿ والله يحب المحسنين).

قال: اذهبي فأنت حرة). [الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ١٢٩].



علاج خبير بالقرآن:

١- أن رجلاً دخل على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى -، فذكر له عن رجل شيئاً.

فقال له أمير المؤمنين عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً، فأنت من اهل هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[الحجرات: ٦] وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾[القلم: ١١] وإن شئت عفونا عنك. فقال العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبداً). إحياء علوم الدين: ٣/ ١٥٣.

النمام لا يكون صادقاً:

٢- أن سليمان بن عبد الملك - رحمه الله تعالى - كان جالساً وعنده الزهري - رحمه الله تعالى -، فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فيَّ وقلت كذا وكذا ؟

فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت.

فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق.

فقال له الزهري: لا يكون النمام صادقاً.

فقال سليمان: صدقت.

ثم قال للرجل: اذهب بسلام). إحياء علوم الدين: ٣/ ١٥٦.

هكذا يتعامل مع النمامين:

سبعين سوطا في ظهرك خير من دم مؤمن:

٣- جاء في ترجمة الإمام القدوة الوزير العادل رجاء بن حيوه الكندي أبو نصر الأزدي ويقال الفلسطيني الفقيه - رحمه الله تعالى -، وهو من أجلة التابعين ما نصه: (قال صفوان بن صالح: عن عبد الله بن كثير الدمشقي القارئ، عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر - رحمه الله تعالى -، قال:

(كنا مع رجاء بن حيوه، فتذاكرنا شكر النعم، فقال: ما أحد يقوم بشكر نعمة.

وخلفنا رجل على رأسه كساء، فكشف الكساء عن رأسه، فقال:

ولا أمير المؤمنين ؟.

قلنا: وما ذكر أمير المؤمنين ها هنا، إنما أمير المؤمنين رجل من الناس. قال: فغفلنا عنه، والتفت رجاء فلم يره، فقال:

أتيتم من صاحب الكساء، ولكن إن دعيتم واستحلتفم فاحلفوا.

قال: فما علمنا إلا بحرسي قد أقبل عليه.

فقال: أجيبوا أمير المؤمنين.

فأتينا باب هشام، فأذن لرجاء من بيننا، فلما دخل عليه، قال:

هيه يا رجاء، يذكر أمير المؤمنين، فلا تحتج له.

قال: فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟.

قال: ذكرتم شكر النعم، فقلتم ما أحد يقوم بشكر نعمة، قيل لكم: ولا أمير المؤمنين، فقلت: أمير المؤمنين رجل من الناس.

فقلت: لم يكن ذلك. قال: آلله ؟ قلت: آلله.

قال رجاء: فأمر بذلك الرجل الساعي، فضرب سبعين سوطاً، فخرجت وهو متلوث في دمه.

فقال: هذا وأنت رجاء بن حيوه.

قلت: سبعين سوطاً في ظهرك خير من دم مؤمن.

قال ابن جابر: فكان رجاء بن حيوه بعد ذلك إذا جلس في مجلس يقول ويتلفت: احذوروا صاحب الكساء) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٦١، تهذيب الكمال: ٩/ ١٥٦.





آخر المطاف

وبعد أن يقوم الإنسان المسلم بكل ما عليه، ويؤدي حقوق الآخرين، ويتخلق بكل خصال الخير، على الرغم من كل هذا فإنه لن يتخلص من الناس، ولن ينجو منهم: فقد جاء في كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان -رحمه الله تعالى- في ترجمة إمام الزهد والورع حاتم بن عنوان الأصم -رحمه الله تعالى- ما نصه:

(وقال أبو جعفر الهروي: كنت مع حاتم كرة وقد أراد الحج، فلما وصل إلى بغداد، قال: يا أبا جعفر، أحب أن ألقى أحمد بن حنبل.

فسألنا عن منزله ومضينا إليه، فطرقت عليه الباب، فلما خرج.

قلت: يا أبا عبد الله أخوك حاتم.

قال: فسلم عليه ورحب به، وقال بعد بشاشته به:

أخبرني يا حاتم، فيمَ أتخلص من الناس؟

قال: يا أبا عبد الله، في ثلاث خصال.

قال: وما هي؟

قال: أن تعطيهم مالك، ولا تأخذ من مالهم شيئاً.

قال: وتقضي حقوقهم، ولا تستقضي منهم حقاً.

قال: وتحمل مكروههم، ولا تُكره واحداً منهم على شيء.

قال: فأطرق أحمد ينكت بإصبعه الأرض، ثم رفع رأسه، وقال:

يا حاتم، إنها لشديدة.

فقال له حاتم: وليتك تسلم، وليتك تسلم، وليتك تسلم). وفيات الأعيان: ٢/ ٢٧.

فالمطلوب العمل، ثم العمل، ثم العمل، وإخلاص النية لله، والاستعانة بالصبر، والتواصي بالحق، حتى نصل بأمتنا إلى بر الأمان، وطريق السلامة، ولن يكون ذلك إلا بالاهتداء بهدي النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى، وتحمل المشاق والصبر على الأذى في تبليغ كلمة الله تعالى إلى الناس، وإيصال النصح إليهم بأحسن وسيلة، وأعذب كلمة، وأسهل طريقة، لأن النصح علاج مرٌّ فليصحبه شيء من حلو الكلام، فعلينا أن نكون من الذين يعلمون الحق، ويرفقون بالخلق، ولهذا قال يحيى بن معاذ الرازي - رحمه الله تعالى -:

(أحسن شيء كلام الصحيح، من لسان فصيح، في وجه صبيح، كلام رقيق، يستخرج من بحر عميق، على لسان رجل رفيق).

وجاء عنه رحمه الله أنه قال: الكلام الحسن حسن، وأحسن من الكلام معناه، وأحسن من معناه استعماله، وأحسن من استعماله ثوابه، وأحسن من ثوابه رضا من يعمل له) تاريخ بغداد: ١٤/ ٢٠٩، وفيات الأعيان: ٦/ ١٦٦، في ترجمة يحيى بن معاذ الرازي.

وختاماً

أسأل الله العلي القدير أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وممن يعلمون فيعملون، وممن يعملون فيخلصون، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



مُحتويات الكتاب

كتب المؤلف

التاليف:

١)صفحات مضيئة من عبادة السلف.

٢)علي بن المديني شيخ الإمام البخاري.

٣)حذيفة بن اليمان أمين سر رسول الله.

٤)شيخ الإسلام ابن تيمية رجل الإصلاح والدعوة.

٥)صحيح السيرة النبوية.

٦)الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليه السلام.

٧)الأرض المقدسة بين الماضي والحاضر والمستقبل (دراسة حديثية تحليلية).

٨)من نبوءات الرسول "حديث الخلافة والأمراء".

٩)صفحات مضيئة من حياة السابقين ١-٢.

١٠)صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام.

١١)من نبوءات الرسول "حديث سنين الخداع".

١٢) تفسير سورة الأنعام - بالمشاركة.

١٣)إسلامية فلسطين في الكتاب والسنة.

١٤)عشاق الحور وطلاب دار السرور (من أعلام الاستشهاد يين).

١٥)صحيح أسباب النزول (دراسة حديثية).

١٦) محمد ناصر الدين الألباني العلامة المحدث والداعية السلفي / علماء ومفكرون ومعاصرون

التحقيق:

١٧)نور اليقين في سيرة سيد المرسلين.

١٨)كتاب الرؤية للإمام الدارقطني -بالمشاركة.

١٩)كتاب مختصر قيام الليل للمروزي - بالمشاركة.

٢٠)كتاب مختصر قيام رمضان للإمام المروزي - بالمشاركة.

٢١)كتاب مختصر صلاة الوتر للإمام المروزي - بالمشاركة.

٢٢)ثلاث رسائل في الجهاد لشيخ الإسلام ابن تيمية - بالمشاركة.

٢٣)رسالتان في حياة الأنبياء للبيهقي و - السيوطي / بالمشاركة.

٢٤)تخريج أحاديث تفسير الطبري - - تقريب وتهذيب _١/٧.

٢٥) تخريج أحاديث تفسير ابن كثير ترتيب وتهذيب للدكتور صلاح الخالدي.

٢٦) تخريج أحاديث السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي.

٢٧) فقه السيرة لمحمد الغزالي / تعليق وتخريج واستدراك.

٢٨) تخريج أحاديث تفسير يحيى بن سلام البصري.

٢٩) فتح الملهم في شرح صحيح الإمام مسلم لشبير أحمد العثماني وتلميذه محمد تقي العثماني / ضبط وتعليق وتخريج أحاديث الشرح / ١-١٢.

٣٠) فهرس كتاب أوجز المسالك سرح موطأ مالك لمحمد زكريا الكاندهلوي بتعليق الدكتور تقي الدين الندوي.